

العفو
أو
الفضيلة الغائبة
دكتور
محمود محمد عماره
الأستاذ بجامعة الأزهر
نشر وتوزيع مكتبة الأزهر بالمنوفية

د/محمود محمد عماره
الأستاذ بجامعة الأزهر

العفو

أو

الفضيلة الغائبة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ١٩٩٩م
نشر وتوزيع مكتبة الأزهر بالمنوفية

النشر والتوزيع
مكتبة الأزهر بالمنوفية
شبين الكوم طريق جامعة الأزهر

الفهرس



العفو

أو

الفضيلة الغائبة

تمهيد:

الصفات التي يتصف بها الإنسان:

إما أن تكون لازمة. يقتصر أثرها على شخصه هو فقط . . .

وإما صفات لها صبغةٌ اجتماعية، لأنها يتعدى أثره إلى الغير . .

الأولى: مثل رجل يؤمن بالله واليوم الآخر . . لم يجد في مجلس خيراً يقوله أو يفعله . . فآثر أن يكون من الصامتين . .

فالصمت: صبغة شخصية . . .

وأما الصفات المتعدية إلى الغير فمثل: صلة الرحم. والتواضع. والعفو..

ويمكن أن نتَّخذ من الزواج مثلاً للاثنين:

فالزواج من أجل الجنس: صفة شخصية.

والزواج من أجل الولد: صفة اجتماعية.

ولكن. . مع خصوصية الصفة الشخصية إلا أنه لابد منها لتكوين البيئة اللازمة لتطبيق القواعد الأخلاقية الإجتماعية . . وهكذا يقرر الباحثون.

ومن الصفات الاجتماعية . . المتعدية إلى الغير : **صفة العفو**. .

خلق العفو

وسيادة الأمة

أهمية العفـو:

إذا كانت التقوى مجموعة من الفضائل العملية . . التـي يصلح بها المسلم ليصلح الله تعالى به أمته . . فإن للعفو مكان الصدارة بين هذه الفضائل جميعاً.

ذلك بأنه من أخلاق السيادة التـي تتأكد بها قوة المؤمن . . ويثبت بها نُبلُه.

(فلا يَنْبُل الرجل حتى تكون فيه خصلتان:

العفة عما فى أيدى الناس. والتجاوز عنهم)

وإذا كانت عظمة الخلق على قدر ما يحققه من آثار. وما يرفع من أضرار .

فإن العفو هو ذلك الخلق العظيم . . بما يثمره من بركات فى عالم الضمير، وعالم الواقع . . وما يدخر لصاحبه من ثواب جزيل. وذكر حسن.

وفى هذا يقول ابن حبان رضى الله عنه:

(من أراد الثواب الجزيل. واسترهان الود الأصيل. وتوقع الذكر الجميل فليتحمل من ورود ثقل الردى. ويتجرع مرارة مخالفة الهوى، باستعمال السنة التى ذكرناها: فى الصلة عند القطع. والإعطاء عند المنع. والحلم عند الجهل.

والعفو عند الظلم[1] إلا أنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا)[2].

---

(١) يقصد حديث الرجل الذى أتاه -ﷺ- فقال يا رسول الله: إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى . . الحديث.

(٢) روضة العقلاء لأبى حاتم / ١٦٧.

وبهذه الخصوصيات جميعاً صار العافون عن الناس: أجل الناس وأعظمهم. الذاهبين بالفضل كله:

قالوا: وأغنى الناس عن الحقد من عظم عن المجازاة. وأجل الناس مرتبة من صد الجهل بالحلم.

وما الفضل إلا لمن يحسن إلى من أساء إليه.

فأما مجازاة الإحسان إحساناً. فهو المساواة فى الأخلاق.

فلربما استعملها البهائم فى بعض الأوقات.

ولو لم يكن فى الصفح وترك الإساءة خصلة تحمد إلا راحة النفس وراحة القلب. لكان الواجب على العاقل ألا يكدر وقته بالدخول فى أخلاق البهائم بالمجازاة على الإساءة إساءة ومن جازى بالإساءة إساءة فهو المسئ وإن لم يكن بادئاً[1]

لهذا كان العفو مظهر القوة

إنك بالعفو مطالب بالصعود إلى قمة عالية عالية:

أن تمسك لسانك . . . فلا تتكلم . .

وأن تكف يدك . . فلا تؤذى . .

وأن تكبح جماح مرجل يغلى فى قلبك

بل وأن تحسن إلى هذا الذى أساء إليك . . .

وأن يستمر هذا الإحسان !! وما أصعب هذا الامتحان!!

ولك أن تتصور المظلوم الذى يتلقى الكلمة النابية، أو اللطمة العادية، وقد تكون أنت، فأنت تحارب فى جبهات ثلاث:

فنفسك الأمارة تهتف بك: خذ ثأرك . .

---

(1) المرجع والموضع السابق .

وربمـا كـان لـك أنصـار يغرونـك بالانتقـام . . شـفاءً لصـدرك . .

وربمـا كـان هنـاك أشـرار يُغررون بـك . . لتقـابل النـار بالنـار . .

شـفاء لصدورهـم . . حيـن يورطونـك . . ويشـغلونك . .

فـإذا تخطيـت هـذه العقبـات . . فـإنك تنتصـر . . متجـاوزاً تلـك الحوا

المانعـة واضعـاً حـداً لمسلسل الانتقام الـذى كنـت ستحقق بـه أطمـاع حسـادك!

مراحل العفو

ولأن التكليف هكذا على غايـة مـا تكـون المشـقة . . فـإن الإسـلام لا يطلـ

منـك أن تفـرغ شـحنة الغضب دفعـة واحـدة – ولكنـه التخلـص مـن حمولـة الغضـب

إذا صـح التعبـير يتـم عـبر مراحـل ثـلاث هـى:-

كظم الغيظ: ﴿والكـاظمين الغيـظ﴾

العفو . . ونسيان العدوان ﴿والعـافين عـن النـاس﴾

ثم . . تسنم ذروة الإحسان ﴿واللـه يحـب المحسـنين﴾

العفو

فى القرآن الكريم والسنة المطهرة

دليلك على الطريق

ولأن الزاد قليل . . والشقة بعيدة . . والطريق موحش . . فإن الإسلام يقيم الدلائل بين يديك . . حتى تأخذ بيدك إلى أفق العفو العالى . . من القرآن الكريم والسنة المطهرة ومواقف المتسامحين عبر التاريخ.

من القرآن الكريم

قد تتخذ قرار العفو من الناحية النظرية . .

ثم تحاول تطبيقه عملياً . . فإذا بنفسك ترميك بمجموعة من الهواجس . . . عليك. وتسد طريقك إلى العفو . . وإذا بك تسمعها تقول لك:

إن العفو يجرئ المسئ عليك . . ومن ثم يزيد من إساءته . . وجراءته . وعندئذ . . تفوت المصلحة . .

وإذاً . . فلابد من الانتقام . . لأن الانتقام هو التأديب اللائق بهذا الذى أساء!

فهل كان الانتقام هو الحل الحتمى . . للخروج من الحرج!!

إن وقائع التاريخ تقول: لا . .

وما يزال العفو سيد الموقف . .

بل ما يزال الإحسان جزاء من أخطأ. . .

القرآن يرد هذه الهواجس

ولكن الحق -سبحانه وتعالى- . . وهو العفو الغفور . . يواجه الغاضب بقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[1].

---

(١) النحل: ١٢٦ - ١٢٨.

(أ) فأنت بالعفو تجعل بينك وبين عقاب الله وقاية. ثم تشغل جوارحك بطاعة الله سبحانه وتعالى . . قاصراً نظرك على رؤية ما يرضيه.

ثم إنك بالعفو لتترقى إلى درجة الإحسان . .

فأنت به من المحسنين الذين جعلوا نفع العباد غايتهم. وسلامة القلوب خاصتهم. ثم يجئ الترغيب فى العفو بمعية الله تعالى لمن عفا. .

والنتيجة التى يقررها العارفون بطبائع النفوس المدركون لأسرار اللطف الإلهى . . هى:

أن الله معك: وإذن . . . فلن يضرك أحد.

أما من الناحية الواقعية

فإن الله تعالى يهيئ لك المهابة . . ويزين محبتك فى صدور الآخرين . . فضلاً عن جنده الذين لا يعلمهم أحد . . ليكون ذلك كله خط دفاع . . يرد عنك الأذى.

ثم . . ما يصبه فى قلبك من الصفاء الناشئ عن العفو . . والذى يحس به كل من يراك فيطوع لك قلبه . . وإن لم يعرفك قبلاً . .

فإذا صرت بممارسة العفو محسنا . . يمارس العفو طبعا . . لا تطبعاً .

فإن لك من إحسانك جنداً تدافع عنك . . حتى فى غيابك:

وذلك بأنك اخترت بالعفو أن يكون الإحسان بالقول والعمل خلقك مع الآخرين. وحصيلة ذلك كله:

أنك تجيش بالإحسان جيشاً ممن شملهم إحسانك يكون رهن إشارتك وطوع إرادتك! ومن حيث لا تحتسب.

فاجعل الحب . . والتسماح نسيج وجودك . .

إنك فى غيبة التسامح: سفينة مخلخلةُ الألواح . . رمل جاف . . فى يوم صائف . . أو شجرة أغصانها جافة يابسة . .

فاجعل من العفو: قطرة الماء . . وعصارة الحياة . .

ليستأنف الزورق المسير . . إلى مرضاة الله تعالى.

قبل أن ترد اللطمة لطمتين

قد يصيبك إنسان بأذى . .

وقبل أن يستخفك الغضب فترد اللطمة لطمتين . . فإن الآية الكريمة تعترض طريقك . . لتفرغ شحنة الغضب من قلبك . . فإذا أنت على غاية ما يكون الحلم والصبر . . بينما خصمك على غاية ما يكون الندم . . والأسف!

عندئذ يمهد السبيل لتعود المياه إلى مجاريها:

﴿فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾[1].

وكان المتوقع -وصولاً إلى هذه الغاية- أن تأمرك الآية بالصبر أولاً . . ثم تبيح لك الأخذ بالثأر ثانياً . . فهذا منهج القرآن الداعى إلى الارتفاع فى معاملاتنا إلى مرتبة الإحسان . . ولكن ذلك لم يكن!

بل كان من الوفاء لهذا الإحسان نفسه. وضمانا للوصول إليه تجئ الآية الكريمة على نسقها الفريد تجاوباً مع فطرة الإنسان . . واستعلاء بهذه الفطرة التى تدخل من باب العدل . . لتضمن وصولها إلى قمة الإحسان العالية . . طواعية واختياراً:

فالأصل: أن يكف المظلوم عن رد الإساءة ابتداءً . . صبراً أو تصبراً .

أما إن عزم على الرد بالمثل:

فلابد - وقبل أن يتخذ قراره النهائى -من أن يسأل نفسه قائلاً:

هل أنا قادر فعلاً علىّ أن أرد اللطمة بمثلها . . تماماً . . وبالتساوى؟!!

أم أن فورة الغضب ربما دفعتنى إلى المبالغة . . فعدت ظالما . . وكنت قبل مظلوما؟!

---

(١) فصلت: ٣٤.

عندئـذ . . وبمثـل هـذا الحـوار . . سـتكون نفسـك أكـثر فهمـاً للموقـف . . وبالتـالى أكثر قبـولاً للصـبر . . الـذى تحتمـى بـه الآن باختيـارك . . ولـم يفرضـه أحد عليـك.

وإلا . . فلو فرض عليك الصبر بـادئ ذى بـدء . . بينمـا دمـاؤك تغلـى . . وإحساسـك بـالظلم يلسـعك . . فـإن المحاولـة لـن تجـدى معـك . . كمـا لا تغنـى المحاولـة لتسكين المرجل تشتعل مـن تحتـه النـار!

وسـوف تجنـى ثمـار هـذا الصـبر الجميـل . . خـيراً . . لـم تكـن لتحصـل عليـه لو رددت الإساءة إلـى من بـدأ بهـا.

لقـد اكتسـبت بـالصبر صديقـاً عزيـزاً . . سـيظل أسـير فضلـك دائمـاً . .

واكتسـب المجتمـع بـك قـدوة طيبـة . . يقيمهـا الحـق سـبحانه وتعـالى . . منـارة تهـدى الحـائرين الذيـن يمزقهـم الانفعـال الغـاضب . . ليعـودوا مثلـك بغنيمـة هى فى المـيزان أثقـل مـن كـل متـاع.

بين العقل والعاطفة

﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[1]

مـا معنـى صـبرك علـى الأذى؟

معنـاه: أن أخـاً لـك وقـع تحـت تـأثير الانفعـال الذاهـب بـأحلام الرجـال . . فتبعثر مـن تفكيره مـا كـان منظومـا . . وأسـمعك مـا لـم تكـن تسـمع . . وأراك مـن أفعاله ما كـان أثـر انفعالـه.

---

(١) الشورى ٤٣.

فلو أنك واجهته بالشدة . . أعنت الشيطان عليه . . وسوف يجدها فرصة مواتية لتصعيد الخلاف. في معركة تنتهي بهزيمة الفريقين . . ثم انتصار إبليس عليهما!!

والمفروض عليك -وقد نجوت من جانبية الإعصار- أن تحتوى أخاك الثائر بعقلك الذى تحتفظ به دونه . . وكن كأنك لم تسمع . . ولم يقل. حتى إذا هدأت العاصفة. أمكنك أن تحاسبه بميزان العقل . . الذى يعود إليه الآن . . بفضل صبرك الجميل.

وربما -وفى صحوته بعد غفلته- أن يتكفل هو ببيان الخطأ الذى وقع فيه بعقله هو . . لتبدأ بهذا الاعتراف مرحلة جديدة . . على طريق الأخوة التى تزداد عمقاً واستمراراً.

مثل من السيرة العطرة

وعندما استأذن شاب رسول الله -ﷺ- فى الزنا . . لم يستطع الصحابة -رضوان الله عليهم- صبراً على هذه القنبلة التى فجرها الفتى المندفع وإن كادوا ليفتكون بالفتى المنساق بالغريزة الغلابة.

ومن خلال هذه السحب الداكنة . . استوعب -ﷺ- الموقف كله بحكمته. فى محاولة للاستعلاء بالفتى . . وكسر شوكة الغريزة فى كيانه:

لقد كان من الممكن أن يرتكب هذا الفتى جريمته . . فى الخفاء . . وبلا استئذان يفضحه بين قومه . .

لكنه لم يفعل . .

وتقدم بمنتهى السذاجة يستأذن استئذاناً لا يساويه فى قبحه إلا الجريمة نفسها! ومع هذا: فإن تلك السذاجة لتخفى من ورائها بقية من الخير!

حيث لم تطاوعه نفسه. حتى يستأذن . .

ويجب الإمساك بهذه البقية الباقية من الخير . بدل القضاء عليها بالانفعال مهما كانت النوايا صادقة.

وعندما واجهه -ﷺ- بالسؤال:

أتحبه لأمك؟!

أتحبه لأختك؟!

انتفض الفتى صاحياً على دقات السؤال المحرج اللاذع فى نفس الوقت.

. وكانت فى الانتفاضة طهارته من كل نوازع السوء . .

وغادر المسجد وليس فى قلبه شئ أبغض من الزنا

ولكن الآية الكريمة تأخذ بأيدينا إلى أفق أعلى فوق الصبر . . إنه: المغفرة، وإذا كان الصبر حبس النفس عن الجزع . .

فإن المغفرة نسيان هذا الجزع . . فلا يبقى له أثر فى مستقبل الأيام. غير أن القمة هنا -كما تدل تجاربنا- صعبة المرتقى . . لا سيما إذا كانت الإساءة من بشر مثلك . .

وتحملك الآية حملاً على الصعود . . لتبوأ المرتبة الأعلى . . بأدوات التوكيد . . ومنها "اللام" فى قوله تعالى :

﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾

فمثل هذه المواقف لا ينتصر فيها الإنسان ارتجالاً . . وإنما لابد من عزم وتدبير وإصرار . . نثبت به النفس . . ليثبت بناء المجتمع بثباتها . . فى الوقت الذى تتوارى نوازع الشر . . وهواتف الانتقام.

آثار الغضب

كما شهد بها العلم التجريبى

نشرت جريدة الأخبار (القاهرة) ١٩٨١/٥/١٢. . بحثاً شاهداً بما سبق إليه القرآن من حقائق ضمت عليها آياته الكريمة . . حين حذرت من الغضب فراراً من مثل ما حذر منه العلم أخيراً:

قلوب يحطمها الغضب!

الأمراض الميكروبية تتراجع أمام هجوم الأمصال والمضادات الحيوية وغيرها من أسلحة الطب الحديث . . لكن عدداً جديداً من الأمراض الوهمية والحقيقية يحير الأطباء الآن . . وتنبع من ميكروب خطير اسمه: "المشكلات النفسية"!

دراسة حديثة نشرتها منظمة الصحة العالمية، تركز الأضواء على وباء عصرى يرتدى عشرات الأقنعة الماكرة. .

فهو يظهر فى صورة تماثل أخطر الأزمات القلبية، أو الأعراض الواضحة لقرحة المعدة والتهاب الزائدة الدودية، والتهاب المفاصل، وعشرات الأعراض الأخرى، وخلف هذه الأعراض وغيرها يكمن "الميكروب" الحقيقى، وهو المشاكل النفسية ابتداء من الإحباط أو الفشل أو الأزمات العاطفية، حتى الاكتئاب والأمراض العقلية.

يقول خبراء منظمة الصحة العالمية الذين قاموا بهذه الدراسة أن ٤٥٪ من مرضى قرحة المعدة وتصلب شرايين المخ وارتفاع ضغط الدم والأزمات القلبية، تنبع جذور أمراضهم من اضطرابات نفسية . . وأن ٥٠٪ ممن يشكون من آلام فى منطقة القلب، أو اضطرابات فى إيقاع نبضات القلب، أو الشكوى من آلام فى مناطق مختلفة فى البطن، والرغبة فى القئ، أو العجز الجنسى، هم

فى حالة صحية جيدة من الناحية العضوية . . وأمراضهم فى الحقيقة هى عبارة عن مجرد إحساس وهمى بالمرض . . ينبع من أسباب تتصل بضغوط نفسية أو عصبية!

إن الحالة الجسمانية للفرد لا تنفصل عن حالته النفسية، وكم من أعراض مرضية خادعة، تظهر فى مختلف أجزاء الجسم، ويكون محركها الأول هو مشكلة عاطفية أو ضغوطاً عصبية، لذلك فإن وجود هذا المحرك الخفى للأعراض الجسمانية يحير الأطباء فى كافة أنحاء العالم.

ويحذر الخبراء من خطورة تجاهل هذا "الميكروب" العصرى . . ويعتقدون أن التحول السريع فى إيقاع الحياة ،والتدفق الهائل للمعلومات والبرامج الإعلامية والفنية المنطوية على ثقافات متباينة وتلوث البيئة بالضجيج والمواد المنطلقة من مخلفات السيارات والمصانع، إلى جانب تعقيد الحياة الاجتماعية، كلها عوامل تساعد على تساعد موجة الأمراض النفسية، وردود فعلها الجسمانية.

ومن دراسة أخرى جرت فى جامعة متشجان الأمريكية، خرجت الحقائق التالية:

العوامل النفسية هى المسئولة عن ارتفاع ضغط الدم . . ويمكن للكثيرين من مرضى ارتفاع ضغط الدم، السيطرة على المرض إذا تمكنوا من السيطرة على عواطفهم وأعصابهم، فالغضب -مثلاً- يزيد من ارتفاع ضغط الدم ويطلق فى الجسم عشرات من المواد المرتبطة بهذه الحالة. وعندما يزول الغضب يعود ضغط الدم إلى حالته الطبيعية، لكن الكميات الهائلة من المواد التى أطلقها الجسم أثناء لحظة الغضب تحدث تأثيراً لا يزول بزوال الحالة التى خلقته . . ومن الصعب تحديد خطورة هذا الأثر عند تكرار حالات الغضب.

وفى دراسة أخرى لفريق من العلماء الأمريكين ظهرت حقيقة بالغة الغرابة:

فحص العلماء شرايين ٨ أشخاص من أصحاب الوزن الثقيل . . متوسط وزن كل منهم ١٨٥ كيلو جراماً، ومن الطبيعى أن تكون نسبة الكولسترول – الدهنيات– فى شرايينهم مرتفعة لكن الفحص الدقيق أثبت عكس ذلك تماماً . . شرايينهم كانت "أنظف" من شرايين ذوى الوزن الخفيف . . ونسبة الدهنيات أقل من نسبتها عند أصحاب الوزن العادى الصحى.

فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ . .

الأبحاث والنظريات السائدة تؤكد ارتباط السمنة بأمراض الشرايين . . وتصاعد معدلات الترسبات الدهنية فى شرايين القلب كلما تصاعد السمنة . .

وهؤلاء الثمانية ماتوا لأسباب بعيدة عن أمراض القلب والشرايين، بل وبشرايين خالية من المواد المسئولة عن الأزمات القلبية وتصلب الشرايين؟

هذه الظاهرة وغيرها الكثير، تدعم الرأى القائل بأن أمراض القلب والشرايين تنبع فى معظم الأحيان، من الحالة النفسية والعصبية للأشخاص . . وأن أكثر "المرشحين" للإصابة بهذه الأمراض ليس أكثرهم "سمنة" بالضرورة، بل أكثرهم غضباً وعصبية . . واستسلاماً للحزن واليأس عندما يواجه بصدمة عقلية أو اجتماعية أو عاطفية!

أما بعد . . فإن الله تعالى يحب القلب الحزين . . فلا تركن إلى النفس بتغذية شهوة الانتقام . . إن الدنيا: دار تقلب . . ودار ابتلاء . . ودار مفارقات: يغنى فيها الفاسق ويفتقر فيها الطائع . . فكيف تركن إليها؟! . .

فليكن العفو سلاحك الذى تنتصر به عليها وأنت الكاسب على أى حال: فليس هناك ما هو أكمل من الله عطاء وأحسن منه جزاء . . وتذكر كيف يتحول العفو إلى عبادة تؤجر عليها.

فإنك قدرت على من أساء إليك، ثم جعلت من العفو عنه شكراً لنعمة القدرة عليه.

العفـو

فـى السـنة المطهـرة

لقد كـان -ﷺ- "أول المسلمين" ولذلك كـان قمــة العــافين:

لقد بلـغ ظلـم قومـه درجـة التشبع . . فمـا كــان جوابــه إلا العفــو البــالغ أيضــاً درجـة التشـبع:

وذلــك قولـــه-ﷺ-:

(اللهـم اغفـر لقومـى فـإنهم لا يعلمــون)

وإنهـا لدعـوة غنيـة المحتـوى. مسبوكة الصياغـة. مديــدة الأبعــاد:

فهو أولاً: يستغفر لهم . . ولا يدعو عليهم (اللهـــم اغفــــر)

وثانياً: يتلطف بهم (لقومـــــــى)

وثالثاً: يعتذر لهم (فــــإنهم لا يعلمـــــون)

وهكـذا يعلمنـــا-ﷺ-:

أن مـن أحسـن إليـك . . فحيـه بأحسـن منـــه. .

ومـن أسـاء . . فـلا تقابلـه . . بمثــل إســاءته . .

بل ولا تعاتب مبالغاً . . فــإن شـدة العتــاب تذهــب بالأصحـــاب. .

وكفـى بـالعفو نعمـة . . فاشـكر اللـه تعـالى أن جعلـك أهـلاً لـه. وشـغلك بـــه .

وكفـى بـالعدوان جـزاءً ذاتيـاً يحـس بـه المعتـدى فـى كيانـــه . .

فإنـه إن لـم يكـن للعفـو أهـلاً . . فـأنت أهـل لـــه . . والقــادرون يعطـون علـــى قـدر نبلهـم وفضلهـم . . بغـض النظـر عمـا يفعلـه الظــالمون!

روى أنـــه -ﷺ- لمــا نزلـت آيــة ﴿خـذ العفــو . .﴾ قــال: (قلـت مــا هـذا يــا جبريل؟ قـال:

إن اللـــه أمـرك أن تعفـو عمـن ظلمـك. وتصـل مـن قطعـــك. وتعطـــى مـــن حرمـك)

ولا يمكن للمبادئ أن تكون واقعاً حياً فى دنيا الناس إلا إذا كان الداعى إليها قدوة فيها.

ولقد كان -ﷺ- هذه القدوة فى أسمى معانيها:

عن أنس رضى الله عنه قال:

كنت أمشى خلف النبى-ﷺ-. وعليه برد نجرانى. غليظ الحاشية. فأدركه أعرابى. فجبذه جبذةً شديدةً فنظرت إلى صفحة عاتق النبى -ﷺ- وقد أثّرت بها حاشية البرد. من شدة جبذته، ثم قال:

يا محمد: مر لى من مال الله الذى عندك. فالتفت إليه. فضحك ثم أمر له بعطاء.[1]

وتأمل موقف الأعرابى الذى وعى أن المال فى الحقيقة مال الله تعالى . . وهذا حق.

ولكنه سقط فى الامتحان العملى . . فى امتحان الذوق.

فما كان الحق ليونذ إلا بالوسيلة الجميلة . . والتى تشتق جمالها من جمال الحق نفسه. .

وتأمل كيف وقف أنس يتعلم العفو على يد قائده -ﷺ- . . لا بمحاضرة تحت قبة الجامعة . . وإنما يتلقاه على الطبيعة . . وعلى أرفع مستوى . .

وهكذا يضع المظلوم بالعفو حداً . . قبل أن يتسع الخرق على الراقع . . والأساس القرآنى لهذا الموقف النبوى، قوله تعالى:

﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾[2].

ومعنى ذلك أن مواجهة العدوان بمثله ستكون سيئة أيضاً . .

---

(١) متفق عليه.

(٢) الشورى ٤٠.

وذلك بأن الرد العنيف على أى حال مكروه، ومن أتى المكروه فسوف يعود عليه كفل من آثاره.

(ولأن يصبر المرء على حرارة الجفاء ومرارته أونى من الانتقام مما يَسْتَجلب عليه بما هو أحر وأمر مما مضى، لأن من الكلام ما هو أشد من الحجر، وأنفذ من الإبر، وأمر من الصبر).

وما أحسن قول الشاعر:-

لقد أسمع القول الذى كاد كلما

تذكر نيه النفس قلبى يصدع

فأبدى لمن أبداه من بشاشة

كأنى مسرور بما منه أسمع

وما ذلك من عجز به، غير أنى

أرى أن ترك الشر للشر أقطع.

وما أجمل أن يعطى رسول الله من أساء إليه حقه فى العفو. .

وعلى العطاء مزيد من هذه الابتسامة الرضية التى تذهب بقية من الوحشة ليعود الصفاء كما كان . . بل ربما أعمق مما كان!

والأمة على الطريق

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه: تغدينا يوماً عند الوليد بن عتبة، وهو أمير على المدينة، فأقبل الخادم بصحفة، فعثر فوقعت الصحفة من يده، فما ردّها -والله- إلا نقن الوليد، وانكب ما فيها فى حجره فبقى الغلام واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل فغير ثيابه وأقبل علينا تبرق أساريره، وأقبل على الخادم فقال: يا بائس، ما أرانا إلا روعناك، اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى!.

من مواقف العفو

موقف هذا الرجل الذى أحسّ بمرارة ما فعل به صديقه . . فذهب يعاتبه لكنه . . مضى عن طريق رأس الرجاء الصالح! وكيف؟! لقد مر على مسكن كانت لهما مرتعاً . .

مر على ملاعب الصبا . . وذكريات الشباب . . فلفحه نسيم الذكريات. فهدأت نفسه . . وبدأت الذكريات الجميلة تداعب خياله . . فذهب كل شئ بعد أن خاض لجة الذكريات: تماماً كهذا البعير حامل الملح:

لقد خاض به إلى الماء . . فذاب الملح . . وخرج سليما معافى!

ومن الغريب أن ترى بعض الناس: يخزنون الإساءة فى قلوبهم . . ولا يصفحون . . حتى تنضح قلوبهم بالحقد . . والرغبة فى الانتقام. .

وقد يكونون من أصحاب الأقلام . . فإذا هم -كما قيل- يشربون من البحر الأسود . . ويغمسون أقلامهم فى البحيرات المرة . . ثم ينفثون هذا الكدر كله فى الجو . .

وكان عليهم أولاً أن يصفحوا . . بل ينسوا . . بل يحسنوا . . راحة لأعصابهم على الأقل . .

وهو مستوى صعب المرتقى . . لكنه متاح . . مارسه الأصفياء من الناس فعلاً . . ومنهم الشاعر القائل فى قريب له أساء إليه:

يحاول غمى . . لا يحاول غيره
وكالموت عندى أن يحل به الرغم

وما زلت فى لينى له وتعطفى
عليه، كما تحنو على الولد الأم

لأستل من الضغن حتى استللته
وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

إن الشاعر هنا كبير القوم . . وإن كبير القوم لا يحمل الحقد، لأن الحقد مانع من اتخاذ القرار السليم . .

وكيف يكون كبيرا من قيد الحقد خطاه . . وعقد لسانه. .

وإذا لم يكن المدير أو الوزير أرحب من الرعية صدرا فليغادر موقعه.

ولقد كان هناك ممن يشاهدون الإساءة ناس تضيق صدورهم. . فلا تتحمل ما ترى. . مشيرة برد اللطمة لطمتين . . لكن القلوب الكبيرة تصير أوسع من الإساءة. . فتحتويها. .

من ثمار العفو

يقول -ﷺ-: "ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزا"(١)

وأسلوب القصر فى الحديث يؤكد أن العزة ثمرة أكيدة لممارسة العفو فى دنيا الناس . .

وربما يعالج الحديث بصيغة القصر ما قد يظنه البعض من ذلة موهومة تلحق بمن اتخذ من العفو تاجاً يزين به جبهته . .

والواقع شاهد بما حققه العفو من ثمرات يانعات:-

١- فالعفو: رحمة بالمعفو عنه. .

٢- وهو بذلك عامل من عوامل تماسك الأمة التى لا تعزل الخطائين فيها وإنما تفتح لهم ذراعيها . . لعلهم يرجعون.

٣- وهو من ناحية أخرى: إتاحةٌ لفرصة جديدة يتوب فيها المخطئ توبة نصوحاً.

٤- وتزداد شعبية العافى . . وبخاصة إذا كان رجلاً قيادياً يبحث عن الأضواء!

٥- وكل من رآك تعفو سيكون جندياً فى خدمتك: يدافع عنك.

٦- وفى النهاية إما أن تملك ناصية العاصى بعفوك وإحسانك . .

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب البر والصلة (٦٧٥٧).

وإما أن تغيظه -على غير إرادتك- بمزيد من العفو . . وربما نال بإحسانك إليه أضعاف ما يناله بانتقامك منه. وغضبك عليه.

٧- وعليك أن تدرك أن الذى اعتدى عليك . . قد أهدى إليك حسناته . . فاشكره . . بالعفو عنه!

وفى دنيا الناس غرائب:

فقد يدخل المرء النار بذنوب لم يفعلها . . لأنه رأى غيره يذنب . . فسكت راضياً!!

وقد تغتاب إنساناً . . فتنتقل حسناتك إليه . . فيدخل الجنة بحسنات لم يفعلها!!

فإذا أتيحت لك فرصة العفو . . فاعف . . عمن أهداك أثمن ما عنده وهو: حسناته!

٨- لأن تكون مظلوماً تنتظر الثواب . . خير من أن تكون ظالماً تترقب العقاب.

وذات يوم قال حكيم لولى دم القتيل:

احمد الله أن كنت والد القتيل . . ولم تكن والد القاتل.

٩- فى العفو إشاعة للود . . ثم هو ستر تحمى به سمعة مؤمن تشجعه بالعفو على التوبة.

١٠- (أ) المذنب المعفو عنه . . يكف عنك عدوانه.

(ب) يحسن إليك.

(جـ) تكون قدوة تتسع بها دائرة الحب.

(د) سوف تحمله على أن يراجع نفسه فلا يكرر مع غيرك إساءته.

إن القوى هو الذى يتسامح ويعفو . .

أما الذى يحقد . . فهو الضعيف.

والعمر ضيق . . ولا يتحمل مناقشة الأصدقاء المخلصين . . الذين يبعثرهم العتاب الشديد المكرور . . وحينئذ سوف تكون الخسارة أكبر . . لأن بعثرة الأصدقاء أشد من بعثرة المال.

بالإضافة إلى أن الناس من حولك لا يصدقونك وأنت غاضب أن ما تدعيه قد حدث من صديقك.

فاعف عنه . . فإنك إن لم تعف . . تكون قد اغضبت ربك سبحانه وتعالى.

وفى نفس الوقت الذى ترضى فيه الشيطان . . فهل تتحمل مسئولية هذه النتيجة؟!

من مآثر عمر -رضى الله عنه-

ورحم الله عمر -رضى الله عنه- . . فقد كان قبول العذر واحداً من أعظم سجاياه:

(كان عالماً برعيته، عادلاً فى قضيته. عارياً عن الكبر. قبولاً للعذر. سهل الحجاب. مصون الباب. متحرياً للصواب. رفيقاً بالضعيف. غير محارب للقريب. ولا جافياً للغريب).

قمة الإنصاف

عن أبى سعيد الخدرى قال:

جاء أعرابى إلى النبى -ﷺ- يتقاضاه ديناً كان عليه. حتى قال له: أحرج[1] عليك ألا قضيتنى.

فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك تدرى من تكلم؟ قال:

"إنى أطلب حقى.

فقال النبى -ﷺ-:

---

(١) أحرج: أضيق. من التحريج أى أضيق عليك.

هلاّ مع صاحب الحق كنتم؟

ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها:

إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى تأتينا تمرنا فنقضيك، فقالت:

نعم. بأبى أنت يا رسول الله. قال:

فأقرضته. فقضى الأعرابى. وأطعمه فقال: أوفيت. أوفى الله لك، فقال:

أولئك خيار الناس، إنه لا قُدِّسَتْ أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع[1])

وحتى لو أغلظ الأعرابى القول . . فلا يسقط حقه أبداً . . ورغم النقد العاصف من قبل الصحابة فقد كان صوت الأعرابى أعلى:

لأنه أولاً صاحب حق . . وإن لصاحب الحق مقالاً . .

وثانياً: لما لقيه من وقوفه -ﷺ- إلى جانبه إلى درجة أنه لفت أنظارهم إلى أن موقفهم الأمثل يجب أن يكون إلى جانب المحق . . مهما بلغ حبكم لرسول الله .

فالمعارضة ليست ولاءً لأشخاص مهما كانت مواقفهم . . وإنما هى الولاء للحق أولاً . . والحق عاشراً!

ثم يحسم رسول الله -ﷺ- الموقف بقرض من تلك المرأة المؤمنة . . فوفّى الأعرابى حقه . . بل وأطعمه وأكرمه . . فانتزع منه الشهادة بالوفاء لرسول الوفاء.

ولا ينتهى الدرس بكسب الأعرابى إلى صفّه . . بل يعلنها صريحة مدوية:

إن ضياع حق الضعيف فى أمة يسقطها من عين الحق سبحانه وتعالى.

وعاد الأعرابى إلى بيته مجبور الخاطر . .

---

(١) أى من غير أن يصيبه أذى

وبقى الدرس الذى يلح على الذاكرة أبداً وهو:

أنه -ﷺ- لو عامل الأعرابى كما هو كائن . . لظل الأعرابى كما هو بل أسوأ مما كان . .

ولكنه عامله كما ينبغى أن يكون . .

فكان كما ينبغى أن يكون!

العفو فى المواقف الصعبة

ماذا كان "حمزة" رضى الله عنه بالنسبة لرسول الله -ﷺ-؟

لقد كان فى حياته سنداً قوياً وعوناً على هذا الزمان:

فهو أولاً عمه . . وإذن فهو أبوه فى عرف العرب . .

وطالما دافع عنه فى الجاهلية . . وشكل مع أعمامه الآخرين خط دفاع واقياً حال دون فتك المشركين به . . ولما حاول أبو جهل أن يتعدى على الرسول . . ووجه إليه ألفاظاً نابية أحرجته أمام الملأ من قريش . . وسمع حمزة بما حدث . .

فماذا فعل؟

حمل سيفه -وهو ما زال على الجاهلية- وذهب إلى أبى جهل وضربه فشج رأسه . . وسال الدم على وجهه شاهداً بأن محمداً ليس وحده . . وأن أكبر رأس تعتدى عليه فلن تفلت من العقاب.

وليس هذا فقط . . بل إن حمزة كان على موعد مع الإسلام . .

فقد قال لأبى جهل بعدما ضربه:

أتعتدى عليه وأنا على دينه؟

فكانت هذه الكلمة ضربة أقوى من حد السيف . . من حيث كسب محمد نصيراً، له وزنه بين العرب.

منذ ذلك اليوم . . بدأ حمزة يباشر سلطاته جندياً باسلاً من جنود الحق، فهو الذى تصدى لكل معتد حاول النيل من الجماعة الإسلامية. .

وكان موقفه فى غزوة أحد مضرب المثل . .

ولقد اغتالته يد "وحشى" الغادرة . .

وخسرت الأمة الإسلامية باستشهاده بطلاً عظيماً.

ولكن المفاجأة العجيبة أن "وحشى" هذا أراد أن يدخل الإسلام. .

وكأنما سمع من داخله هاتفاً يقول له:

كيف تجرؤ على لقاء محمد وقد قتلت أعز إنسان لديه؟

وهل سيغفر لك هذه الزلة؟

غير أن الأنباء المتواترة عن سماحة رسول الله -ﷺ- وعفوه وحلمه ضاعفت من أمله . . فحملته قدماه ليجد نفسه ماثلاً بين يدى رسول الله -ﷺ-.

فماذا تتوقع أيها القارئ الكريم؟!

لو أن محمداً استدعى أصحابه ليصفى حساباً به مع "وحشى" لما لامه أحد. .

ولكن الرسول المصطفى عفا عنه . . عفواً كان مفاجأة للرجل . .

غير أن الرسول بشر من البشر:

له كبد تهفو كأكبادهم . . وله مثلهم فؤاد شاعر . . يحب فى الله ويكره فى الله، فقد قبل إسلام "وحشى" إلا أنه قال له:

(لا تجعلنى أراك)

فقط ابتعد عنى يا وحشى . . لا تذكرنى بفعلتك التى فعلتها . . وهذا أمر:-

أولاً: لا يضر "وحشى".

ثانياً: لا يخالف الإسلام. .

وهكذا كان عفو رسول الله نبيلاً جليلاً . . حين شمل من قتل عمه الأثير الشهيد فهل يُبقى هذا الموقف فى قلب مسلم بقية من حب الانتقام؟!!

إننا مدعوون إلى طى صفحاتنا مع من أساء إلينا . . فالحياة مع العفو أجمل ما تكون.

وصدق القائل:

وأغمض عينى عن أمور كثيرة

وإنى على ترك الغموض قدير

وما عن عمى أغضى ولكن لربما

تعامى وأغضى المرء وهو بصير.

الذين يدفعون السيئة . . بالحسنة

يأمرنا الإسلام بصلة الأرحام أمراً جازماً . . من حيث كان من بركاتها: سعة فى الرزق، وامتداد العمر . . وتبقى بها الأسرة والعائلة متماسكة متعاونة على البر والتقوى . . فلا تفككها الخلافات ولا تمزقها الأحقاد . . إلى جانب جزائها الموفور يوم الحساب.

لكن هذه الصلة لا تتحقق بمجرد رد الجميل إلى قريبك.

بل إن الواصل حقيقة هو الذى يستمر فى مودته لأقربائه وإن قابلوا مودته بالجفاء أو النكران.

ونقرأ فى ذلك ما رواه أبو هريرة:

أن رجلاً قال: يا رسول الله:

إن لى قرابة: أصلهم ويقطعونى. وأحسن إليهم. ويسيئون إلىّ، وأحلم عليهم ويجهلون علىّ.

فقال: لئن كنت كما قلت . . فكأنما تسفهم المل -التراب الحار- ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم ما دمت على ذلك[1]

فأنت ترى مسلماً يعانى من مشكلة عائلية تنغص عليه حياته:

---

(١) رواه مسلم.

فكلما بالغ فى الإحسان . . أمعن أقرباؤه فى الإساءة . .

ومع ذلك فقد استمر يصل رحمه على ما كان منهم . .

فلما فاض الكأس . . حمل همه إلى الرسول يطلب مشورته . .

لقد كان يزورهم . . لكنهم لا يطرقون بابه . .

ويذهب إليهم بالهدايا فى أفراحهم وأتراحهم . . بينما هم لا يردون إليه الجميل . . فإذا عاتبهم أو خاطبهم . . ردوا بجفاء.

باختصار . .

إنه مؤمن كالنخلة: يرميهم بالثمر . . فيقذفونه بالحجر!

فى حجورهم حجارة . .

وفى أيديهم أسلحة . .

وفى أفواههم خناجر لا تصدأ من كثرة اتهامهم له بما ليس فيه . .

ووراء ذلك قلوب فيها براكين وزلازل.

تلك هى المشكلة. فماذا كان الحل: لم يوافقه الرسول لمجرد دعواه بل حمّله مسئولية ما زعم.

وذلك قوله (لئن كنت . . كما قلت)

أى أنه لم يركب معه موجة الاتهام . . كما يفعل بعض المسارعين فى تصديق ما يقال دون تحقق وتثبت . .

فإذا صحت دعواك أيها المظلوم . . فلا تأس على قوم جاحدين:

وقد تتصور وظائفهم . . وأموالهم . . وأشياعهم . . تحميهم . . وتحملهم على التنكر لك . . فتتخيل أنهم فى موقف أفضل منك . .

لا . . ليس الأمر كذلك . . بل أنت أفضل منهم:

وهانتذا كأنما تقف على منصة عالية . . وإلى جانبك وعاء فيه تراب ساخن وأنت من مكانك العالى تسفهم ذلك التراب . وتصور المشهد:

١- إنهم يحسون بـالألم من التراب السـاخن.

٢- ويشعرون من الهوان الحادث من المشهد المذل المخـزى.

٣- ثم هم فى النهايـة بعد هذا المنظر الكئيب مشـرفون علـى المـوت بهـذا العقـاب الذى فرضـوه هم على أنفسهم . . فأى الفريقين خير مقاماً . . وأحسن نديـا؟! أنـت بـالطبع. .

وإذا كانت للقـوم مقاومـة . .وبهرجـة . . وبقيـت فـى نفسـك بقيـة مـن شـك فـى أن تظـل غالبـاً . . فـاعلم أن معـك القـوة التـى لا تغلـب . . والحصـن الـذى لا يرام . . والعينُ التى لا تنـام.

ومعنـى ذلـك: أن يستمر المؤمن فى صلة رحمه فى أسـوأ الظـروف . .

فإن العاقبـة للواصلين، وصـدق الشـاعر:

وإن الـذى بينـى وبين بنـى أبــى
وبين بنــى عمــى لمختلـف جـدا

إذا أكلـوا لحمى وفـرت لحومهـم
وإن هدمـوا بيتـى بنيـت لهـم مجـدا

وإن زجـروا طيرى بنحس تمر بــى
زجرت لهم طـيرا تمـر بهـم سـعدا

ولا أحمل الحقد القديـم عليهمـو
وليس رئيس القـوم مـن يحمـل الحقـدا

لهم جل مـالى إن تتـابع لـى غنـى
وإن قل مــالى لـم أكلفهمـو رفـدا

عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله -ﷺ-:

"ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: إن شراركم الذى ينزل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رفده، أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال:

الذين لا يقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبا، قال:

أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال:

من يرجى خيره. ولا يؤمن شره.[1]

هذا واحد من مجالس التربية والدعوة . . يفتح بسؤال من المعلم . . يثير به شهية الطلاب إلى مزيد من المعرفة . . إن كانوا راغبين، وكان من حرص الطلاب على العلم أنهم أعلنوا استجابتهم طائعين قائلين: بلى . .

ثم كان من أدبهم أن قالوا: إن شئت يا رسول الله، راجعين بالقضية إليه هو . .

وفى النهاية تجد نفسك أمام مجلس من مجالس العلم توفرت له إمكانات الفائدة حين وجد المعلم الشفيق الحفى بطلابه، وبين يديه متعلمون . . قانتون . راجعون بالفضل لأهله فإذا بدأ الدرس فعلاً . . انطلق من قاعدة سليمة تتأدى بالطلاب إلى ما يريدون.

والذى يهمنا هنا -مما يتصل بموضوعنا- هو خلق العفو . . وكيف صارت مجافاته واستدباره شراً مستطيراً بقدر ما كان تسنم ذروته فوزاً مبيناً.

---

(١) رواه الطبرانى وغيره. وفى الترغيب والترهيب ج٣/ ٩٢٣.

التدريب على سجية العفو

جرى بين أبى بكر وبين ربيعة الأسلمى رضى الله عنهما كلام فقال له أبو بكر كلمة كرهها وندم أبو بكر رضى الله عنه فقال: يا ربيعة ردّ مثلها . . حتى يكون قصاصها. فقال ربيعة : لا أفعل!

فقال له أبوبكر:

لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله -ﷺ- فأصر ربيعة على رفضه قائلاً: ما أنا بفاعل

فانطلق أبو بكر.

وجاء ناسٌ فقالوا لربيعة:

رحم الله أبابكر!! بأى شئ يستعدى عليك وهو الذى قال ما قال.

فقال لهم ربيعة: أتدرون من هذا؟

إنه أبو بكر الصديق: ثانى اثنين إذ هما فى الغار . .

ذو شيبة فى الإسلام. .

إياكم لا تنصرونى عليه . . فيغضب، فيأتى رسول الله -ﷺ- فيغضب له. . فيغضب الله لغضبهما!! فيهلك ربيعة!!

ولما جاء ربيعة رسول الله أيده -ﷺ- فى عدم الرد عليه وقال قل: غفر الله لك يا أبا بكر.

وبادئ ذى بدء نقول:

يتقلب المؤمن . . ودائماً بين خطين:

الحياء . . والندم:

يغمض عينيه . . حياء من الله تعالى. . فلا يذنب. .

ويكف يده . . فلا يعتدى . . ويمسك لسانه . . فلا ينم ولا يغتاب. .

فإذا غلبته نفسه يوماً . . فعصى . . بكى نادماً.

وهكذا كان أبو بكر رضى الله عنه هنا:

لقد قالها كلمة عابرة . . قد تكون دعابة . . ولكن فيها شئ من السخرية . . وقد لا تحمل فى ذاتها طعنا فى أخيه ربيعة الأسلمى . .

وهذا هو المظنون برجل عفة اللسان، نقى السريرة، كأبى بكر رضى الله عنه . .

ولكن مهما يكن من أمر . . فإنها لم تعجب "ربيعة" . فهو إذن الفيصل فى القبول أو الرفض . . ومن هنا كان صاحب حق لدى الصديق ومن حقه أن يغضب . .

والغضب متوقع ولكن المسلم لا يستسلم له بل يكظمه بل يمسحه بالعفو.

هذا العفو الذى يتحول بطول الممارسة إلى ملكة راسخة لا تستجدى من خارج الذات . .

ولعل هذا سر التعبير بالاسم الدال على الثبات والدوام فى قوله تعالى:

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾

والقادرون على حبس الغضب . . وتحويل إتاحته . . إنهم أصحاب القلوب الوسيعة . . الرحبة والتى تستوعب شحنته مهما كانت عاتية . .

ولا يجئ عفوها ببيضة الديك . . وإنما هو العفو الدائم . . الواسع والذى يستوعب الناس جميعاً كما عبرت الآية الكريمة ﴿عن الناس﴾.

وتزداد هذه الصورة إشراقاً فى وعيك .. إذا ما تجلت الصورة المقابلة .. صورة الغاضب الغاصب حق الآخرين فى العفو:

إن قلبه ليتحول إلى قنبلة زمنية– سوف تنفجر يوماً ويكون هو حطباً لها.

أما من عفا . . فقد نجا به العفو من منطقة الخطر . إلى جانب ما يحققه من ثمرات منها:–

١- تحمى نفسك أيها الغاضب من مضاعفات الانفعال وهو خطر داخلــى.

٢- ثم تحميها من عداوة المعتدى . .وهو خطر خــارجي.

٣- تكسبه صديقاً مخلصاً لسابق عفوك عنــه.

٤- تفر بـالعفو من عزلـة تعيش فيها بـلا صديق. .

ولقد حفل تاريخنـــا بنمــاذج لهـذا الطــراز المسـماح . . ومنهـم ذلـك الشــاعر القائل:

وكنـت إذا الصديـق أراد غيظــي
وأشـرقنى علـى حنـــق بريقـــى
غفـرت ذنوبه وعفوت عنــه
مخافـة أن أعيـش بـــلا صديــق.

مهمــة الرفـاق

وعندمـا احتدم الخـلاف بين أبـى بكـر وربيعـة رضـى اللــه عنهمـا كـان علـى الرفـاق أن يتدخلــوا. .

إن الانفعــال يسـتبد بــالمتلاحيين ولكــن الطــرف الثــالث هــادئ الأعصـــاب. . ولهــذا فالأصدقــاء هــم المرشــحون لفـض الاشـتباك بيـن الطرفيـــن . . ولقــد تدخــل الرفـاق هنـا فعـلاً . . ولكــن. .

ولكنهم انحـازوا إلـى ربيعـة لمـا ظنـوه من الصديــق تحـاملاً عليــه. . فقــالوا: (رحـم اللـه أبـابكر، بـأى شـئ يسـتعدى عليك . . وهـو الــذى قــال مــا قــال؟!! وكــأنهم يقولـون لـه:

غريـب أمـر أبـى بكر ضربنـى . . وبكـى . . ثم سـبقنى واشــتكى!!

وحاشـا للصحابـة الأجـلاء أن يريــدوا إشــعال الموقــف . . وإنمــا هــى النجـدة العربيـة تعبر عن نفسـها وفـى ظـل الإسـلام . . لا بالسيف دفاعــاً عــن الأخ ظـالمــاً أو

مضوماً . . وإنما هو الاحتجاج لوعيز لمشروع بدعوة خالصة أن يرحم الله بكر!!

لكن إحتجاج القوم قد اصطدم بعزيمة ربيعة: المؤمن . . العاقل والذى تقول الروايات أنه لم يشرب الخمر أبداً. .

لقد أدار القضية فى رأسه . . وأحس بما يمكن أن يترتب على موقفه لو تم ركب معهم الموجة . . فاستغل الموقف للإضرار بالصديق . . لقد كان هو ذلك كالصديق الوفى، والمؤمن الواعي الذى يستنهض العزيمة التى خدرها الغضب. ليعلن عن فضل أبى بكر، والذى ينبغى أن يظل كما هو أبداً فى مكانه تمكين، ثم قارن بين الانتصار لنفسه، وما يترتب علي ذلك من غضب رسول الله -ﷺ- ثم غضب الحق تعالى فى النهاية، لو أنه لم يقدر شيبة فى الإسلام قدرها؟!!

من أجل ذلك يلقنهم فى أدب العفو درساً لا ينسى، وكان أحق به وأهله..

وعندما يوافى ربيعة رسول الله -ﷺ- . . كان سعيداً عندما رأى الرسول موافقاً فى الاحتفاظ لأبى بكر بمكانته . .وعدم الرد عليه. .

وإذا كان هناك من رد مناسب فهو دعوة بالمغفرة له . . يختم بها الموقف. .

وفى الموقف تدريب لصاحب الحق على العفو . . ومراغمة النفس **النزاعة إلى الانتقام . .**

وإذا كان هناك أناس يميلون حيث مالت بهم رياح الهوى . . فإن المؤمن بحكم إيمانه الضابط مطالب بأن يسارع فى هوى الحق أولاً، وهوى الحق عاشراً. .

وهو موقف له بعده من الآثار فى حياة المؤمن الملتزم: فإذا درب المسلم على أن يتنازل يوما عما يملكه . . فسوف يكون زهده . . من بعد. أعمق . . عمّا لا يملكه!

ولقد أسهم الشعر العربى فى التنويه بهذا النموذج العالى. .

والازراء بمن يتبعون هواهم فى مثل قول الشاعر:

ملكنا . . فكان العفو منا سجية

فلما ملكتم . .سال بالدم أبطح

وما عجب هذا التفاوت بيننا

فكل إناء بالذى فيه ينضح

ولكن ارتفاع المسلم إلى ممارسة العفو طبعاً لا يتم بمجرد التنويه به.

وإنما هو فى حاجة إلى تدريب للقلب على أن يعفو:

شكا رجل إليه -ﷺ- قسوة قلبه . . فقال له:

امسح رأس اليتيم . . وأطعم المسكين. .

لقد كان هذا الرجل يعيش فى مجتمع مترف . . ماجن . . مسرف . . لا يسمع فيه أنينا . . ولا يرى مسكينا!

فعاش بقلب غريب عن الحياة . . غير مؤهل لممارسة الشفقة على خلق الله .. ولا التجاوز عنهم . . والرأفة بهم. . وطبق قاعدة تربوية يؤصلها الإسلام أمره -ﷺ- بأن يزايل هذه البيئة المادية الجامدة . . إلى بيئة فيها أيتام . . ومساكين ليمارس القلب لونا من الحياة الوادعة لم يألفه من قبل. .

وسوف يرى ما لم يكن يرى، ويسمع ما لم يكن يسمع، وبالتالى سوف يتنامى إحساسه بالآخرين أو كما قال المربون.

ويبقى بعد ذلك دور الرفاق المصلحين بارزاً ليحسم مادة الخلاف بين الصديقين:

ليكون الاعتذار . . ثم قبوله وتحت إشرافهم . .

وعندئذ يصفو الجو . .

والذى كان خصاماً . . صار وداً ووئاماً.

إن تدخل الطيبين عنصر مهم فى تحقق المودة بين المتخاصمين:

فهؤلاء الطيبون يمثلون المجتمع الحى . . والمجتمع الحى يحيا فيه الأموات . . بينما المجتمع الميت . . الساكت أو الشامت . . يموت فيه أحياؤه.

وعندما حاول أناس أن يتدخلوا بين أبى بكر وربيعة . . تصدى لهم ربيعة ملتزماً بأداء واجبه فى الإصلاح . . عندما أسكتهم حتى لا يتسع الخرق. مما يؤكد أهمية دور الخصمين فى رأب الصدع: وعودة المياه إلى مجاريها.

وقد حدث أن أوقف عمر رضى الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه. .

فذهب واحد من الصحابة لأبى بكر وقال له:

والله لا ندرى أيكما الخليفة؟!

وقطع أبو بكر الطريق بهذا الرد المسكت:

هو الخليفة . . لو شاء.!!

================

على أن المسلم مأمور بحسن الظن بأخيه المسلم. .

ويفرض عليه حسن الظن أن يلتمس له الأعذار فيما يبدوا للعين خطأ.

(جاء فى ذكر حياة السيدة حفصة رضى الله عنها أنها لما تأيمت ذكرها عمر لأبى بكر وعرضها عليه فلم يرد عليه أبو بكر كلمة، فغضب عمر من ذلك. فعرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله -ﷺ- فقال عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم، فانطلق عمر إلى رسول الله -ﷺ- فشكا إليه عثمان فقال رسول الله: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان. ويتزوج عثمان من هى

خير من حفصة، ثم خطبها إلى عمر، فتزوجها رسول الله -ﷺ- فلقى أبو بكر عمر رضى الله عنهما فقال لا تجد على فى نفسك، فإن رسول الله -ﷺ- ذكر حفصة، فلم أكن لأفشى سر رسول الله -ﷺ- فلو تركها لتزوجتها)(١)

وإذا كان الشاعر يقول:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

فليس هناك إلا قلب الأب المشغول على ابنته القابعة فى البيت تنتظر شريك الحياة، وقد عاش عمر رضى الله عنه تلك اللحظة الرهيبة الحرجة، ولكنه قرر الخروج من المأزق بعرضها على أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما. .

أما أبو بكر فلم يرد بجواب يشفى الغليل. .

وأما عثمان فقد رد، ولكن الرد كان قاسياً:

ما بى حاجة؟!!

فتأثر عمر منهما وشكاهما إلى رسول الله -ﷺ- الذى طيب خاطره بقوله:

يتزوج حفصة من هو خير من عثمان. .

ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة.

وقد تزوج -ﷺ- حفصة . . وتزوج عثمان بنت رسول الله -ﷺ-.

وهكذا يدبر القدر الأعلى . . وما علينا إلا التسليم والرضا. . بعد أن نبذل الطاقة المتاحة لنا . . طاقة الصبر . . حتى تتكشف الحقيقة. . وأمرنا على ما يقول الشاعر:

لعل له عذراً . . وأنت تلوم

---

(١) [أسد الغابة ٥: ٦٥٢].

وفى موقف آخر:

مر عمر رضى الله عنه بعثمان رضى الله عنه . . فألقى عليه السلام فلم يرد عثمان السلام. .

فاشتكاه إلى أبى بكر رضى الله عنه. .

وفجأة دخل عثمان . . فقال له أبو بكر أخوك عمر يسلم عليك فلا ترد عليه السلام؟!

فقال عثمان:

والله ما سمعت به ولا شعرت. .

فقال أبو بكر: فيم كنت تفكر؟

فقال: أمور . . لو أننا سألنا رسول الله عنها.

فقال أبو بكر: والله لقد كنت أفكر فيها قبلك.

من ضوابط الإصلاح بين الناس

١- الشكوى . . ولكن إلى ذى مروءة.

٢- سرعة حسم القضية قبل أن تتشعب.

٣- على المختطئ أن يعتذر. .

٤- وعلى صاحب الحق أن يقبل الاعتذار . . بلا استكبار، فإن قبول الأعذار من شيم الأحرار.

العفو عن "هند"

ما يزال الحديث موصولاً عن عفو رسول الله -ﷺ- والذى مسح به فوق الجراح . . فعاد الود الغائب . . وطلعت الشمس الغاربة:

ففى أعقاب غزوة أحد . . ماذا فعلت "هند" امرأة أبى سفيان؟

يقول أحد العلماء:

(لقد بلغ من حقدها على محمد ودعوته أن فعلت ما لم تفعله امرأة ولا يفعله إنسان. ولا يفعله الذئب . . ولا النمر:

شقت صدر حمزة. وأخرجت كبده ولاكته.

هند التى فعلت فى حرب الرسول الأفاعيل:

لقد عفا عنها. وبايعها. وقبل إسلامها.)

ولا ينبغى أن ننسى ما حققه ذلك العفو من ثمرات طيبة:

لقد تأثرت هند بالموقف .. وأحست بأنها تخلق من جديد . .

وذهبت إلى بيتها . . ثم حطمت صنمها بيدها . . ثم خاطبته قائلة:

لقد كنا معك فى غرور!

وتأمل ماذا كانت تكسبه الدعوة لو أن محمداً -ﷺ- قتلها؟

امرأة . . وماتت . . وتنتهى القصة. .

غير أنه بالعفو أضاف جديداً إلى الدعوة . . وحملها هى بنفسها من فرط اقتناعها بصدق الإسلام على أن تتكفل بتحطيم صنمها . . ولو أنه سلط عليه من يهدمه لما كان للموقف روعته.

وهل ننسى ما فعله أهل مكة به وبأصحابه:

لقد عذبوهم. .

وحاربوهم اقتصادياً . . واجتماعياً . . وعلى كل الجبهات . .

وكان أن فتح الله مكة المكرمة . . ودخل الإسلام ظافراً . .

ثم وقف أهلها أذلاء صاغرين بين يديه؟ .

ولو سارت الأمور سيرها الطبعى . . لقتَّلهم تقتيلاً . .

وما كان حينئذ ظالماً. .

ولا يوجد على ظهر الأرض من يلوم رجلاً ينتصف لنفسه ويعاقب هؤلاء المفسدين فى الأرض. .

إلا أنه خاطبهم قائلاً:

ما تظنون أنى فاعل بكم . . قالوا: خيرا . . أخ كريم وابن أخ كريم. .

قال:

اذهبوا فأنتم الطلقاء!

لقد كان أهل مكة يعرفون ما يستحقون من عقاب . . بمقاييسهم هم . .
أما محمد -ﷺ- فقد اتخذ الموقف الذى يليق به . . وهو العفو.

يقول بعض العلماء:

(لقد سكتوا فى انتظار الحكم القطعى . . ولو كان الحكم بقتلهم جميعاً لما وجد من كتاب التاريخ: الصديق منهم والعدو من يلومه بكلمة. ولكن حكم محمد كان غير ذلك: كان مفاجأة لا يتوقعها أحد.

مفاجأة أدهشت عصره. وكل عصر يأتى بعده)

إن على المسلم أن يسأل نفسه . . هل هو يعمل للدعوة طلباً للدنيا . . أو ابتغاء ما عند الله؟!!

فإن كانت الأولى . . فليتحمل وزر نفاقه . .

وإن كانت الثانية فليجعل من جسمه وعمره ثمناً يقدمه عفواً تصفو به القلوب . . وتسامحاً يبقى به الود . . وتضحية يتحقق بها التوازن والقرار.

لقد ذاق -ﷺ- من قبيلة "ثقيف" الأمرين . . وكان ذلك سنة تسع من البعثة. .

ولكن . . فى سنة تسع من الهجرة جاءه وفد منهم فكان لهم إكرام خاص . . على عكس ما كان متوقعاً ..

ولاحظ أن الوفد القادم كان يستشعر هذا الماضى الأليم . . ومن ثم . . لم يكونوا يأكلون إلا إذا أكل من الطعام من جاءهم به أولاً. .

ومع ذلك قرر -ﷺ- ما فهمه عمر رضى الله عنه من بعد، حين سأل من أولى الناس بعفونا فقال:

إن أولى الناس بعفونا . . من أساءوا إلينا . .

ولذلك أنزلهم الرسول -ﷺ- المسجد . .

بل نصب لهم خياماً خاصة بهم . .

ثم أشرف وبنفسه على خدمتهم . .

وبعد العشاء كان يسامرهم فيجاذبهم أطراف الحديث . . ولمدة طويلة حتى إنه -ﷺ- من طول الوقوف كان يبادل بين قدم وقدم . .

وكان هذا واحداً من المواقف العظيمة، والتى مكن فيها لخلق العفو فى ضمير الأمة.

فى ضيافة رسول الله

يوم العيد وقيمة العفو

فى يوم العيد نعيد ترتيب البيت من جديد، نصلح القديم، ونستكمل ما نقص من أمتعتنا استكمالا تتم به بهجة العيد، ويرحب الإسلام بهذه الحركة الظاهرة، كاسترخاءة وادعة، ينتقل بها الجسم إلى مرحلة أكثر حيوية ونشاطاً.

ولأن الإسلام -قبل ذلك- عمارة تبدأ من باطن الإنسان وقلبه يتقاضانا حركة أخرى فى داخل النفس. نجدد بها ما بلى من مشاعرنا ونستكمل ما نقص من فضائل نبيلة ضاعت فى هجمة المدنية، التى خسرنا بها كثيراً من التقاليد الجامعة والفضائل المانعة.

وفى مقدمة هذه الفضائل التى فقدناها العفو:

لقد كانت الشخصية الإسلامية قوية بهذا الود المتبادل بين أفراد المجتمع، ثم كثر الجفاء والخلاف، ومع الخلاف ضاعت من جسومنا خلايا

حرقها التعصب للذات، وبدأ الشرخ يتسع فى كيان الأمة، وكان من قبل عصياً على الشروخ.

العفو والتسامح

ونحن مدعون اليوم إلى ضيافة كريمة بين يدى رسول الله -ﷺ- نتعلم منه كيف يكون العفو شرعة تتأكد به الوحدة، ويسمق البناء.

فى واحدة من غزواته الرمضانية -فتح مكة- والتى كان اللين فيها أقطع من السيف وأمضى من السلاح، وإذا قيل بحق "رجب" شهر البذر و"شعبان" شهر السقى، فإن "رمضان" شهر الحصاد وليس أجمل ولا أكمل من العفو ثمرة ينشئها فينا الصوم، ليصير من بعد ملكة داخل النفس، تأخذ بها الشخصية الإسلامية سمتها بعد رمضان أوفر ما تكون عطاء وأقدر ما تكون مواكبة للحياة بزادها الروحى، بعد أن تودع رمضان إلى عود حميد.

وتأمل معى كيف عفا محمد -ﷺ- عن (هند بنت عتبة) وما هى الجريمة التى محا العفو آثارها؟!

لقد شقت هند بطن حمزة بعد استشهاده فى أحد، وأخرجت كبده ثم مضغتها، وسط غناء القيان ووقع الدفوف!!

وحتى زوجها لم يرحم الجثة الهامدة، فجعل يضرب شدق حمزة بكعب رمحه، بينما هو مسجى لا يملك الدفاع عن نفسه.

فلما كان يوم فتح مكة نسى الرسول -ﷺ- هذا كله وعفا عن (النمرة المفترسة) "هند" وعفا عن زوجها من موقع القوة، بل قد ذهب بالعفو إلى منتهاه حين قال: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

إن القائد الأعلى هنا لا يصفى حسابات قديمة لأنه لا يعمل لنفسه، ولكنه يتوخى مستقبل الدعوة التى لا تسمق فروعها على أشلاء الضحايا، بقدر ما

يتحقق ذلك فى ظل العفو السابغ، وبنفس المقياس تعامل مع بقية الناس، وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل عدو الإسلام الأكبر.

لقد كان عكرمة قائد المقاومة المسلحة فى مواجهة الإسلام الوافد، ومن ثم فقد كان الظن أن يكون له حساب خاص كفاء عناده وتمرده، ولكن القائد العظيم يفتح له ذراعيه عندما عاد من مهربه قائلاً له مرحبا بمن جاء مهاجراً مسلماً، بل إنه ليصل بالترحاب إلى مدى أبعد حين قال لأصحابه (يأتيكم عكرمة مؤمناً، فلا تسبوه، ولا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحي، ولا يلحق الميت)

إن النفوس تدخر طاقة الغضب فيها ليوم الفصل، ولا تبذر غضبها تبذيراً يبدد هذه الطاقة فى غير ما خلقت له، وما يكسب الإسلام من لعنات يرسلها الانفعال المتوتر، فتحبط مفعول الإيمان فى قلب الفتى الجديد عكرمة، ثم إنها لا تصل إلى ميت حسابه على الله.

ولقد كانت زوجته (أم حكيم) عند حسن الظن بها، عندما حملها الوفاء على اللحاق بزوجها الهارب إلى اليمن، رغم أنها طلقت منه بإعلان إسلامها، لكنه الوفاء والعفو يربطان حرارة الانفعال ويظللان الموقف، فإذا بعكرمة يولد من جديد، ليحمل سلاحاً طالما كان يقطر من دماء المسلمين، ليؤدب رفاق السلاح بالأمس ويفتح أبصارهم على الحق الذى رآه، قبل فوات الأوان.

ولقد كان من الممكن إنهاء حياة عكرمة بضربة سيف، ثم تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، ولكن ماذا يكسب الإسلام حينئذ؟!!

لقد بقى عكرمة فحمل السلاح فى وجه زملاء الأمس أعداء اليوم، وشفى الله بهذه المواجهة صدور قوم مؤمنين، يرون الآن كيف يتحول الإنسان بالإيمان وكيف بقى عكرمة بالعفو رمزاً خالداً، وشهادة حق: على أن الداعية ينال باللين أضعاف ما ينال بالشدة.

ومع صفوان

وكذلك فعل -ﷺ- مع واحد من رفاق (عكرمة) هو (صفوان بن أمية) ولقد كان له في معاداة الإسلام بلاء مبين.

وعندما شفع له ابن عمه (عمير بن وهب) لدى الرسول عفا عنه، وتسعف صفوان في هذه اللحظة بقية من حمية الجاهلية، حين يقابل الوفاء بالجفاء، فيشترط على الرسول أن يجعل له الخيار شهرين ولا يكرهه على اعتناق الإسلام.

ويقابل الرسول -ﷺ- الجفاء بمزيد من الوفاء، فيمهله أربعة أشهر لا شهرين كما اقترح، فانظر كيف يمهله ولا يقتله، ثم كيف أرخى له الحبل، فإن شاء أعلن إسلامه، وإن شاء أبَى.

وهكذا يتصرف الرسول العظيم من موقع القوة التي فتح بها قلوباً غلفاً وعيناً عمياً.

ومن كان يصدق أن الرسول الحبيب سيعفو عن (وحشي) قاتل عمه حمزة؟ لقد عفا عنه شريطة أن يغيب عنه فلا يريه وجهه، حتى لا يذكر به عمه الشهيد الحبيب، فهل خسر الرسول الكريم بالعفو شيئاً؟!!

هل انتكست الدعوة حين أرخت للعتاة حبال المودة فاستجابوا للحق مذعنين؟ أبداً . . بل إن ما حدث هو العكس، لقد حقق العفو ثمراته يانعة دانية، فهند بنت عتبة يثمر العفو فيها شخصية جديدة تهب نفسها لله ولرسوله والمؤمنين، وها هي ذي تقول للرسول العظيم: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك، ولما دخلت بيتها راجعة حطمت صنمها بيديها وقالت: لقد كنا معك في غرور!!

فتأمل كيف أنشأ التسامح فى قلب المرأة مشاعر جديدة، بل ضميراً جديداً يحطم بنفسه صنمه، قبل أن يتقدم الداعية ليحطمه بيده، ثم لا ينهى المأساة.

يا له من انتصار أن يتحول المدعو المعرض داعية يقف إلى جانبك فى إصرار، إن موقفه هذا بذاته أسوة حسنة يدخل بها الناس فى دين الله أفواجا.

وناهيك بهند بنت عتبة وهى جهاز الإعلام فى جيش الكفر بالأمس ترصد وجودها اليوم للحق المبين.

ويرد صفوان بن أمية الجميل لرسول الله ففى غزوة حنين -ورغم أنه كان على شركه- يقدم للرسول معونة عسكرية عاجلة: مائة درع. بل إنه عندما سمع أخاً له يقول أثناء المعركة: ألا بطل السحر . . مشيراً إلى هزيمة المسلمين.. رده صفوان المشرك قائلاً: اسكت فض الله فاك، والله لأن يسودنى رجل من قريش خير من أن يسودنى رجل من هوزان.

وحتى وحشى قاتل حمزة ينطلق بحربته -فى حروب الردة- فيقتل الكذاب (مسيلمة) فكان قتله شر الناس كفارة عن قتله قبل سيد الشهداء!!

وبعد . . إننا مطالبون -فى رمضان- أن نتسلح بالتقوى . . لنتقى بها غضبة غالية الثمن . . باهظة التكاليف . . فى محاولة نستشعر بها جلال المناسبة. . الماضية بنا إلى موقع جديد نمارس فيه علاقاتنا بالآخرين على تقوى من الله ورضوان . . هما أثمن ما يجنى الإنسان . . من حصاد رمضان.

قيمة العفو
فى حياة الصالحين

قيمة العفو

فى حياة الصالحين

وفى العفو فليتنافس المتنافسون

ومن أجل هذا التنويه بقيمة العفو، تنافس فيه المتنافسون، قال عمر بن عبد العزيز:

أحب الأمور إلىّ ثلاثة:

العفو فى المقدرة.

والقصد فى الجدة -الغنى-.

والرفق فى العبادة.

وما رفق أحد بأحد فى الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة.

ولاحظ أن جزاء القيامة أعظم . .

لأنك تقدم القليل . . لتحصل على الجزيل هناك ﴿وللأخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلا﴾[1]

وقد كان رضى الله عنه صورة لما يقول . .

فقد كان يمر بالمسجد يوماً . . فارتطم برجل نائم . .

فلما قال له الرجل -وهو لا يعرفه- هل أنت أعمى؟

قال: لا . .

ولما أراد الحارس تأديبه منعه قائلاً:

لقد حسمت القضية . .

يقول لى هل أنا أعمى . .

فقلت له : لا . . !!

---

(١) سورة الإسراء الآية (٢١).

وهذا الموقف العظيم يذكرنا بحقيقة هـى:

أن جزاء العفو يكون أعظم . . كلما كان العافى يشغل مركزاً مرموقاً.

من حيث انتصاره على نوازع السلطان الداعية إلى البطش ــ لكنه لا ينتقم خوفاً من الله تعالى.

ونقرأ فى هذا ما كتبه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يقول له:

(إنك أعزّ ما تكون أحوج ما تكون إلى الله)

يعنى:

إنك فى قمة عزك . . تكون أحوج ما تكون إلى الله تعالى بتحقيق معنى العبودية فيك . . معترفاً بحاجتك إليه سبحانه . .

فإذا تحقق ذلك جاءت النتيجة على ما قال الحجاج:

فإذا تعززت بالله . . فاعف:

فإنك به تقر . . وإليه ترجع)

فالواجب:

الحرص على عادة العفو عن الناس . .

حتى لا يقطع الله تعالى عادته معك . .

فيكلك إلى نفسك . . فتهلك!

يقول علماؤنا:

(الواجب على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة إليه . . رجاء عفو الله -عز وجل- عن جناياته السابقة وانظر إلى الفرق بين من صفح ومن عاند:

فمن صفح يؤثر جزاء الله . . ولذلك يسامح . .

أما المعاقب: وإن عاقب . . فإنه أقرب إلى الندم)

آفاق التسامح

وحين يأمرنا الإسلام بالعفو فإنه يقصد إلى العفو:

عن كل الناس

وهذا الموقف العظيم يذكرنا بحقيقة هي:

أن جزاء العفو يكون أعظم . . كلما كان العافى يشغل مركزاً مرموقاً. من حيث انتصاره على نوازع السلطان الداعية إلى البطش ــ لكنه لا ينتقم خوفاً من الله تعالى.

ونقرأ فى هذا ما كتبه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يقول له:

(إنك أعزّ ما تكون أحوج ما تكون إلى الله)

يعنى:

إنك فى قمة عزك . . تكون أحوج ما تكون إلى الله تعالى بتحقيق معنى العبودية فيك . . معترفاً بحاجتك إليه سبحانه . .

فإذا تحقق ذلك جاءت النتيجة على ما قال الحجاج:

فإذا تعززت بالله . . فاعف:

فإنك به تقر . . وإليه ترجع)

فالواجب:

الحرص على عادة العفو عن الناس . .

حتى لا يقطع الله تعالى عادته معك . .

فيكلك إلى نفسك . . فتهلك!

يقول علماؤنا:

(الواجب على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة إليه . . رجاء عفو الله –عز وجل– عن جناياته السابقة وانظر إلى الفرق بين من صفح ومن عاند:

فمن صفح يؤثر جزاء الله . . ولذلك يسامح . .

أما المعاقب: وإن عاقب . . فإنه أقرب إلى الندم)

آفاق التسامح

وحين يأمرنا الإسلام بالعفو فإنه يقصد إلى العفو:

عن كل الناس

وعن كل الزلات.

وفى هذا يقول ابن عياض:

(احتمل لأخيك إلى سبعين زلة . .

قيل:

وكيف ذلك يا أبا على؟ قال:

لأن الأخ الذى آخيته فى الله . . ليس يزل سبعين زلة!)

وإذن . . فواجب المسلم أن يتخذ من العفو ركوباً إلى مرضاة الله تعالى.. بالإحسان إلى عياله.

ويحمله على ذلك ما رُكب فى الطبيعة البشرية من قابليتها للعيب . .

ولذا قالوا:

من طلب أخاً بلا عيب . . . بقى بلا أخ.

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً

صديقك لن تلقى الذى لا تعاتبه

وتذكر من ظلمك:

إنك تدعو عليه بالويل والثبور . .

وقد يكون هناك من ظلمته أنت فهو أيضاً يدعو عليك بما دعوت به على أخيك . .

فهل يسرك أن يستجيب الله تعالى لكما معاً؟!!

بل الأفضل أن يسأل كلاكما العفو . . لتسلما معاً!!

كيف نُعين المسئ على الاعتذار

لا يكفى أن تتحمل الأذى يصدر من أخيك . . بل إن من واجبك أن تعينه على التوبة إذا وقع فيك.

وقد ذكروا فى ذلك:

أن الشعبى أقبل يوماً . . فإذا هو برجلين يقعان فيه . . وكانا من قومه.

لقد سمعهما من خلف الجدار يمارسان هواية الخوض فى أعراض الآخرين. .

فلما أنصت . . فإذا هما يشتمانه . . وهو ساكت . .

فلما أطالا الخوض . . عاتبهما . . فقالا:

والله . . يا أبا عمرو . . لا نقع فيك بعد اليوم.

وهكذا يثمر العفو فى قلب المعفو عنه الإحساس بالذنب ثم التوبة منه. . فى صحبة إحساس دائم بفضل هذا الذى عفا. .

بل إن بعض الصالحين كان أكثر واقعية حينما كان يشتمه أحد . . فيسرع إلى منزله . . ليعود بعد برهة قائلاً لمن شتمه:

لقد تبت من ذنب ألممت به فما كان شتمك لى إلا عقابا عليه

فانظر كيف يخرج الشاتم من القضية التى لا يعتبره طرفا فيها . .

لكنه يتهم نفسه . . ويتجاوز الإساءة . . ليحصر همه فى سببها الحقيقى. الذى يتوب منه . . حتى لا يسئ إليه بعد ذلك. .

مع أبى قتادة

كان لأبى قتادة دين على رجل . .

وكان المدين يختبئ كلما رأى أبا قتادة حتى يغيب

وفى يوم . . التقى به فسأله:

ما يغيبك يا رجل؟ فقال:

لأنى معسر!

فقال له أبو قتادة:

بالله أنت معسر. فقال المدين:

بالله إنى معسر!

فبكى أبو قتادة وقال:

إنى سمعت رسول الله -ﷺ- يقول.

مـن نفَّس عـن غريمـه . . أو مَحَـا عَنْـهُ كـان فـى ظـل العـرش يـوم القيامـة.[١]

لقد كان أبـو قتـادة إنسـاناً لأنـه بكـى مـن فـرط شـفقته علـى المديـن . .

ثـم كـان مسـلماً يقتدى برسـول اللـه -ﷺ- . .

ولا يكتفـى بحفـظ أحاديثـه لينـال بهـا درجـة أو جـائزة . .

لأن همتـه كـانت معلقـة بـالآخرة التـى كـان يسـعى لهـا سـعيها وهـو مؤمـن. .

لقد تجـاوز عـن قبضـة مـن المـال . . رجـاء أن يفـوز فـى الآخـرة بمـا هـو أغلـى مـن المـال . .

وقبـل ذلـك . . أعفـى غريمـه مـن الحـرج . . حتـى يـأتى الفـرج . . وفـوق هذا . . ما أعظـم جـزاءه عندمـا يكـون هـذا الجـزاء أن يتجـاوز اللـه تعـالى عنـه غـداً.

ألا إنـهـم رجـال

يـأخذون العفـو مـن النـاس:

يرضـون بالميسـور مـن أخلاقهـم . . ولا يسـتقصون عليهـم . . ولا يناقشـونهم الحسـاب . . ابتغـاء رضـوان اللـه.

وكـان دينهـم فـى حيـاتهم حسـن الصلـة بكـل النـاس:

من أنعم عليهم . . . شـكروه

ومـن شـكرهم . . . . زادوه

ومن أسـاء إليهـم سـتروه . .

وكـانوا مـن القناعـة بحيـث لـم يقـاتلوا أحـداً علـى دنيـا . .

ولقد كـان صفـوان بـن محـرز واحـداً منهـم . . وهـو القـائل:

إذا دخلـت بيتـى:

فـأكلت رغيفـاً

وشـربت عليـه مـاء

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسند الأنصار، والدارمى فى كتاب البيوع (٢٥٨٩).

فعلى الدنيا العفاء . .

ولأنهم كذلك . . فهم أجدر بالعفو . . والتسامح . . فما هناك في دنيا الناس ما يحملهم على أن يقتتلوا.

عقلاء يريحون أنفسهم

قال الرجل محتداً:

إنْ قلت لي واحدة . . فستسمع مني عشراً!!

فقال غريمه ما يطفئ جمرة غضبه:

ولئن قلت لي عشراً . . فلن تسمع مني واحدة!!

إن العاقل ليريح نفسه . . قبل أن يريح شاتميه!

وما عاقبت إنساناً عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه . .

وذلك ما عناه الشاعر بقوله:

لما عفوت ولم أحقد على أحد

أرحت قلبي من هم العداوات

لقد حقق الرجل صحته النفسية بالتخفف من أحمال الغم . . فصار قلبه مطمئناً . . سليماً من الأكدار . . بل إن بعضهم ليتقدم على الطريق خطوة أخرى حين يحسن إلى من أساء إليه اتقاء شره . . وذلك قول الشاعر:

إني أحيي عدوي عند رؤيته

لأدفع الشر عني بالتحيات

وأظهر البشر للإنسان أبغضه

كأنما قد حشا قلبي محبات

إنها المداراة . . وليست النفاق . .

بل قل إنه الحلم . . وناهيك بالحلم زينة للرجال:

ألم تر أن الحلم زين مسوّد

لصاحبه . . والجهل للمرء شائن

فكن دافناً للشر بالخير تسترح

من الهم . . إن الخير للشر دافن

وهو المعنى الذى وصى به لقمان ولده عندما قال له :

(كذب من قال:

إن الشر يطفئ الشر . .

فإن كان صادقاً فليوقد ناراً إلى جنب نار . .

ثم لينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى؟

إن الخير يطفئ الشر كما يطفئ الماء النار)

إن المشتوم بشر . .

وفى كيانه غريزة حب الذات . . وحب الثناء أيضاً . . ومن الطبيعى أن يثور على من أساء إليه . .

ولكن الصالحين من عباد الله . . يضغطون على حسهم فليسوا بلداء غلاظ الأحاسيس . . وربما كان إحساسهم بالمرارة أقوى من غيرهم . .

لكن إرادتهم تطامن هذا الإحساس بالعفو . . وينطق اللسان بالإحسان . وفى القلب ما يشبه البركان.

ولربما ابتسم الوقور من الأذى

وضميره من حره يتأوه

ولربما خزن الحليم لسانه

حذر الجواب . . وإنه لمفوه.

أفضل الناس

يقولون: ثلاثة يحبهم الله تعالى:

١- من كره سوء يلحق أخاه وصاحبه.

فذلك قمن - جدير - أن يستحى الله سبحانه منه.

[وذلك هو الحس الاجتماعي النظيف . . الذي يعيش للناس. . وبالناس. غير منطو على ما يهمه . . وليكن من بعده الطوفان].

٢- من كان ذا رفعة من الناس . . فتواضع لله تعالى . . لا لغرض أو عرض.

يعني:

أن الناس -لمواهبه- يرفعونه "فوق"

لكنه بتواضعه يعيش "تحت" تواضعاً . . لا ذلة . .

فذلك الذي عرف عظمة الله تعالى . . فيخاف مقته فيتضاءل في نظر نفسه.

٣- ومن كان عفوه قريباً من إساءته . .

فذلك الذي تقوم به الدنيا . .

ذلك بأنه نجح في أصعب امتحان . . وهو الامتحان المعقود لحظة الغضب الهاجم . . فوضع الله به أوزار حرب توشك أن تقطع أسباب الأخوة.

إنه لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، كما وأنه لا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من ارتكاب مثلها:

ساومت المرأة المسمة التاجر الرومي في سلعة . . فلطمها الرومي لطمة جحظت بها عيناها . . فقالت له:

والله لأستعين بالمعتصم عليك . . فقال لها:

وماذا يفعل لك المعتصم؟!

وسمع رجل ذلك الحوار . . فأسرع وأخبر المعتصم الذي جهز جيشاً . . ودق به أسوار الروم . . ثم دخلها فاتحاً . .

واستدعى المرأة . . واستدعى التاجر الرومي . .

وقال للمرأة:

هذا هو ظالمك . . وهو اليوم ملك لك . .

وماله مالك . .

فاعتذرت المرأة قائلة:

يكفى أنك ثأرت لى . . وائذن لى أن أعفو عنه . . فنحن قوم نعفو إذا قدرنا.

وكان العفو فى ذاته أبلغ تعبير عن روح الإسلام . . وبمثل هذه الروح دخل الناس فى دين الله أفواجاً.

الصغار . . الكبار

قلت لربة البيت:

عاقبى حفيدك الذى ضرب حفيدك . . فقالت:

إنهم فى الطريق الآن يلعبون . . !!

وقلت:

ليت علاقة الكبار . . كانت كعلاقة هؤلاء الصغار . . الذين يتشاكسون. لكن القلوب الغضة الطرية . . ترفض نوازع العدوان . . لأنها غريبة . .

أما الكبار . . فهم فى عداواتهم . . صغار!!

بينما الصغار فى عداواتهم . . كبار!!

ألا إنك لو عاملت غيرك كزهرة . . أعطاك عطره. وإن عاملته ذبيحة.. رش عليك من دمه!!

والجزاء من جنس العمل . .

من مآثر أبى جعفر المنصور

ذكر لأبى جعفر تدبير هشام بن عبد الملك فى حرب كانت له . .

فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرصافة. يسأله عن تلك الحرب. فقدم عليه فقال له:

أنت صاحب هشام.

قال: نعم، يا أمير المؤمنين.

قال: فأخبرني عن حرب دبرها في سنة كذا وكذا.

قال: إنه فعل فيها -رحمه الله- كذا وكذا. ثم قال كذا وكذا رضي الله عنه.

فأحفظ ذلك المنصور فقال للرجل:

قم . . عليك غضب الله، تطأ بساطي وتترحم على عدوي؟!!

فقام الشيخ وهو يقول:

إن لعدوك قلادة في عنقي ومنّة في رقبتي لا ينزعها عني إلا غاسلي.

فأمر المنصور برده ثم قال له: هيه . . ! ،كيف قلت، فقال: قلت: إنه كفاني الطلب، وصان وجهي عن السؤال . . فلم أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته . . أفلا يجب عليّ أن أذكره بخير؟! وأتبعه ثنائي؟

فقال الخليفة: بلى . . لله أم نهضت عنك . . وليلة أدتك . . أشهد أنك نهيض حرة، وغراس كريم . .

ثم أمر له ببر. فقال يا أمير المؤمنين:

ما آخذه لحاجة، وما هو إلا أني أتشرف بحبائك، وأتبجح بصلتك فلما خرج قال المنصور:

عند مثل هذا تحشُ الصنيعة، ويجاد بالمعروف. وأين في عسكرنا مثله.

روى أبو جعفر الطبري:

أن المنصور قام فقال: الحمد لله . . أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فاعترضه معترض عن يمينه فقال:

أيها الإنسان: أذكرك من ذكّرت به

فقطع الخطبة وقال: سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً وأن تأخذني العزة بالإثم، لقد ذللت إذاً وما أنا من المهتدين.

وأنت أيها القائل فوالله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال: قام فقال فعوقب . . فصبر . . وأهون بها . .

ويلك لو هممت . . فاهتبلها . . إذ غفرت! وإياك وإياكم معشر الناس أختها، فإن الحكمة علينا نزلت . . ومن عندنا فصلت . . فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده.

ثم عاد في خطبته كأنه يقرؤها من كفه:

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

من الصبر الجميل
إلى الصبر الأجمل

عفو القادرين

إذا كان المرجو عفوه صاحب سلطان . . فإن على طالب هذا العفو يحسن اختيار أفضل الوسائل للظفر به. .

وإذا كان الإسلام يحض القادرين . . عليه . . فإنه يحض المتورطين أن يتحروا الوصول إليه . . بالكلمة الهادفة . . والحكمة البالغة. .

ونذكر شاهداً على ذلك قول عليّ بن الجهم يخاطب المتوكل الذى أمر بنفيه. .

قال:

عفا الله عنك! ألا حرمة. .

تعوذ بعفوك أن أبعدا

ألم تر عبدا عدا طوره

ومولى عفا . . ورشيدا هدى

أقلنى أقالك من لم يزل

يقيك ويصرف عنك الردى

إن فى ذلك لعبرة . . لخطائين يضيفون إلى ورطة العيب . . غشاوة الكبرياء . .

إن العزة بالإثم تأخذهم . . فتقيد ألسنتهم . . فلا يعتذرون . . ولا ينطقون..

وإذا نطقوا لم تساعد أحوالهم أقوالهم . . فلا ينجحون.

وها هو ذا على بن الجهم يفزع إلى الخليفة . . بينما يطارده شبح النفى .. فيذكره بواقع البشر الخطائين . . بحكم بشريتهم. .

ثم بأمله الواسع فى عفوه . . وهو المؤهل له بما منحه الله من رشد وحكمة. .

وعندئذ تلتئم الجراح . . وكأن شيئاً لم يكن. .

وإذ نتصور أن العفو حقنا . . فلنتصور قبل ذلك أن التودد . . واجبنا!!

ذكر الحافظ بن كثير:

شتم هشام بن عبد الملك رجلاً . . فقال الرجل له:

أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟! فاستحيا . .

فقال: اقتص مني بدلها، أو قال مثلها . .

فقال الرجل: إذن أكون سفيها.

قال: فخذ عوضا.

قال: لا أفعل،

قال: فاتركها لله

قال: هي لله . . ثم لك.

قال: هشام: والله لا أعود إلى مثلها أبداً

أكرم الأخلاق

يلاحظ المربون: أن أنبل أخلاق الإنسان هي التي يتعامل بها مع غيره وهي أكثرها ثواباً . . ما كان أساسها: ضبط النفس، وإسقاط حظوظها، ثم تخلصها من الكبرياء والغيظ . . إيثاراً لما عند الله تعالى. بمعنى:

أن تصالح من خاصمك .

وتصل من هجرك . .

وتبسط يدك بالعطاء والاحترام . . والخدمة . . لمن بخل عليك.

ثم تعوّد المسامحة لمن أساء إليك . . وأن تحارب في نفسك دائماً رغبتها في الانتقام.

وهذا ولا شك أمر عسير التحقيق . .

ولكن الإيمان يحملك مسئولية المحاولة بما يأتي:-

١- إقناع النفس بجزاء العفو المدخر عند الله تعالى.

٢- ثم تزويدها دائماً بما يرقق مشاعرها . . ويأخذها بعاطفة الحب. . حتى يكون التسامح لها طبيعة ثانية . . ومن ثم . . تصبح غير مستعدة لارتكاب الخطأ.

٣- ترك دواعى الغضب ابتداء:

قال رجل لرسول الله -ﷺ-:

قل لى قولا وأقلل! لعلى أعيه.

قال: لا تغضب . .

فأعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: لا تغضب.

إن الغضب أكبر المصائب التى يسلطها الشيطان على الإنسان . . لأنه يستولى على المدارك . . فلا يعلم الإنسان التصرف المناسب فى اللحظات العصيبة ونحن مطالبون حينئذ: أن نتماسك . . فليبق للعقل ضياؤه . . ولتبق للإرادة مضاؤها . . وبهذا المضاء وذاك الضياء . . تحتوى الموقف!!

إن الراشدين من العافين يقطعون الطريق على هذه الرغبات الجامحة:

وذات يوم عاتبت الزوجة زوجها يوما . . لأنه أحسن إلى من أساء إليه: فقال لها:

لقد عودنى ربى تعالى أن يسامحنى . . فعاهدته سبحانه أن أسامح عياله. وأخشى أن أقطع عادتى . . فيقطع عادته!!

ضرورة العفو

وهذا المستوى العالى فى الالتزام بالعفو . . لم يكن اعتباطاً . . ولكنه صادر عن نفس تلتزم بالمعروف . . طبعا . . ثم تلتزم به عقلاً:

ذلك بأن العقلاء يقولون دائماً لك:

افعل المعروف دائماً . .

فإن صادف أهله . . فذاك.

وإلا . . فأنت أهله. .

٢- ثم تزويدها دائماً بما يرقق مشاعرها . ويأخذها بعاطفة الحب . . حتى يكون التسامح لها طبيعة ثانية . . ومن ثم . . تصبح غير مستعدة لارتكاب الخطأ.

٣- ترك دواعى الغضب ابتداء:

قال رجل لرسول الله -ﷺ-:

قل لى قولا وأقلل! لعلى أعيه.

قال: لا تغضب . .

فأعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: لا تغضب.

إن الغضب أكبر المصائب التى يسلطها الشيطان على الإنسان . . لأنه يستولى على المدارك . . فلا يعلم الإنسان التصرف المناسب فى اللحظات العصيبة ونحن مطالبون حينئذ: أن نتماسك . . فليبق للعقل ضياؤه . . ولتبق للإرادة مضاؤها . . وبهذا المضاء وذاك الضياء . . تحتوى الموقف!!

إن الراشدين من العافين يقطعون الطريق على هذه الرغبات الجامحة:

وذات يوم عاتبت الزوجة زوجها يوما . . لأنه أحسن إلى من أساء إليه:

فقال لها:

لقد عودنى ربى تعالى أن يسامحنى . . فعاهدته سبحانه أن أسامح عياله.

وأخشى أن أقطع عادتى . . فيقطع عادته!!

ضرورة العفو

وهذا المستوى العالى فى الالتزام بالعفو . . لم يكن اعتباطاً . . ولكنه صادر عن نفس تلتزم بالمعروف . . طبعا . . ثم تلتزم به عقلاً:

ذلك بأن العقلاء يقولون دائماً لك:

افعل المعروف دائماً . .

فإن صادف أهله . . فذاك.

وإلا . . فأنت أهله . .

ومنهــا:

١- إتاحـة الفرصـة للحـوار بالبرهــان . . بعـد أن تهـدأ النفـوس. .

٢- إعطـاء الحـق قـدره علـى التمكـن . . ثـم الامتـداد.

٣- تجنـب المعــارك الجانبيــة. .

٤- حمايــة المســتقبل مــن مشــكلات تــترتب علــى المغاضبــة أو المواثبــة أو كمـا قـال المرحـوم "خـالد محمـد خـالد"[1] [مـن الخـير للإنسـان أن يكـون متسـامحاً.

وإذا أنـت أعطيـت كـل أحمـق دقيقـة واحـدة مـن وقتـك . . فمعنـى هـذا:

أن الحمقـى أفلحـوا فـى إنـزال أفـدح الخسـائر بــك.

ومعنـاه أيضـاً: أنـك تعطـى نشـاطهم دليـلاً للعمـل. وفرصــة للاطــراد]

إن الحُمْـق مثـل النـار: تـزداد بـالريح تأججـاً واشـتعالاً . .

ويـزداد بالمقاومـــة إصـــراراً وضـــراوة.

ولعـل هـذا مـا حـدا بالمرسـلين والمصلحيـن أن يـتركوا الحماقـة تـأكل نفسـها.

ومـن خـير الحكـم وأزكاهـا قولهـم "دع العاصفـة تـــزأر . .فذلــك أجــدر أن يعجـل بفنائهـا"

إننـا مدعـوون لإيتـاء الزكـاة عن كـل نعمـة يفيئهـا اللـه علينـا:

فـإذا أعطـى اللـه تعـالى أحدنــا العقـل. وحســن الظـن. فـأدنى درجـات الشـكر أن تغفـر للمسيئين. الذيـن لـم يدفعهـم للإسـاءة سـوى افتقـارهم إلـى مــا أعطــاه اللـه لنــا من نعمــة وفضـل.

كـان الفضيـل بـن عيـاض إذا أسـاء إليـه أحـد قـال:

واللـه لأغظيـن الـذى سلطه، ويعنـى بـالذى ســلطه: "الشــيطان" فحـاول أن تـرد كيـد الشـيطان وقـل للآخريـن:

ســلاماً.

---

(١) بتصرف يسير.

حرَّض الإسلام المسلمين على العفو . .

فماذا كان موقف الناس؟

لقد اختار أكثر الناس: العدل . . بينما انحازت القلة إلى العقل . . في نفس الوقت الذى آثر الأبرار: الفضل:

لكن العدل قد يحمل المظلوم على الإسراف فى رد العدوان . .

ولا يزال يشتم ظالمه . . ويشتم . . مبالغاً فى الإيذاء . . الذى يخصم من حسابه عند ظالمه . . إلى حد يصير فيه ظالماً بالإسراف . . وكان الظن أن يستروح مشاعر المظلوم . . فهى أروح لقلبه . .

من أجل ذلك تلجأ قلة من العقلاء إلى دراسة الموقف دراسة تنهى مسلسل الانتقام فتتحقق مصلحة الطرفين . . وعلى سواء.

ماذا يقول العاقل؟

يقول: لقد سرق الظالم نقودى -مثلاً- فلا أبالغ فى شتمه حتى يسرق أيضاً حسناتى!! ثم . . إن لك ذنوباً ترجو من الله غفرانها . . وتخافه من أجلها وهو سبحانه:

يعفو عنك . .

بل ويحسن إليك . . وهو الخالق الرازق

فكيف لا تعفو . . وأنت المخلوق المرزوق؟!

ولقد عبّر هذا التفكير الرشيد عن نفسه فى موقف ذلك الزوج الذى قيل له:

زوجتك تسئ إليك . . فلم لا تطلقها؟ فقال:

لأن لى مع الله ذنوباً أكثر . . وهو على أقدر منى عليها . .

وأخاف أن أنتقم منها . . فينتقم منى . .

وإذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس . . فتذكر قدرة الله عليك.

وبهذا المسلك الرشيد يريح المظلوم أعصابه . . وأعصاب الآخرين ومنهم الشاعر القائل:-

إنى وهبت لظالمى ظلمى

وشكرت ذاك له على علمى

ورأيته أسدى إلى يدا

لما أبان بجهله حلمى

رجعت إساءته على ولى

فضل عليه فبات مضاعف الجرم

وكأنما الإحسان كان له

وأنا المسئ إليه فى الزعم

ما زال يظلمنى وأرحمه

حتى رثيت له من الظلم

لقد فتح الظالم على نفسه باباً أعياه سده، ورمى سهماً أعجزه رده . . فساعِدْه على تجاوز محنته مع نفسه بعفو . . يمهد السبيل إليه ليقف إلى جانبك . . درعا لك كما كان.

واشكر نعمة الله عليك . . حين عصا الله تعالى فيك وها أنت ذا فى الموقف الأفضل . . فأطع الله تعالى فيه . .

وقل فى نفسك:

ربما كان ظلمه إياى جزاء معصية قديمة . . تأخذ اليوم جزاءها . . لأعود نقى الصفحة مرتاح الضمير.

فتحلق فى الأفق الأعلى

وهو أفق التفضل على البادئ بالظلم . . فلا تقف عند حد العفو . . بل ترق إلى أفق الإحسان. .

ومن هؤلاء المحسنين ذلك الرجل الذى قيل له: لم لا تدعو على ظالمك؟

فقال: أنا مشغول بالدعاء له . . لا عليه!!

وقد اتخذت هذه الصفوة قرار العفو مسبقاً . . عن كل ظالم مهما كان موقعه على خريطة المجتمع . . فأراحوا . . واستراحوا.

وما أجمل قول شاعرهم:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب
وإن كثرت منه علىّ الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة
شريف، ومشروف، ومثل مقاوم

فأما الذى فوقى: فأعرف فضله
وأتبع فيه الحق، والحق لازم

وأما الذى دونى فإن قال صنت عن
إجابته عرضى وإن لام لائم

وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا
تفضلت . . إن الحلم للفضل حاكم

ولعل الشاعر هنا يأخذ موقفه هذا من قوله تعالى :﴿والعافين عن الناس﴾ من حيث نوهت الآية بالعفو عن الناس كل الناس: الأقرباء والبعداء من كانوا على ديننا . . ومن لم يكونوا عليه.

من توجيهات الصالحين

وبعد:

فماذا أنت صانع إذا: غشك التاجر . .أو هجرك قريب . . أو حرمك من كان يعطيك؟ وقطعك بعد طول وصال؟

قد يحملك الانفعال التأثر على رد السيئة بمثلها . . على الأقل!

ولكن الصالحين من العافين يأخذون بيدك إلى حيث ترتاح نفسك ويهدأ انفعالك حين يُبَوِّئونك من العفو قمة تشرف منها على غريمك من عل . . فإذا أنت تبذل فطرتك صفاء ودعاء. .

لقد كان من دعاء أحد الصالحين قولُهم:

(اللهم سددنى لكى أعارض من غشنى بالنصح وأجزى من هجرنى بالبر . . وأثيب من حرمنى بالبذل . . وأكافئ من قطعنى بالصلة وأن أشكرَ الحسنة . . وأغضَّ عن السيئة)

قرار العفو

وإذن فلنتخذ إلى العفو سبيلاً . . بمثل هذا القلب الذى تجاوز المحنة فصارت فى حسه منحه:

وخذ من أخيك العفو عند ذنوبه

ولا تك فى كل الأمور تعاتبه

الانفعال . . والموت البطئ

إذا قرر المظلوم أن يستمر المنطق الغشوم سيد الموقف . . فسوف يصطلى بنار ساعد فى إشعالها . . وكان فى يده ما يطفئ لهيبها . .

نعم . . قد يحقق برد العدوان راحة يستشعرها لحظات . .

ولكن النتائج على المدى البعيد لن تكون فى صالحه:

وسوف يدفع الثمن من صحته الجسمية . .والنفسية . . ومن الناحية الاجتماعية أيضاً . .

وتحذيراً للغاضبين من هذا المصير يقول الأطباء للمتشنجين إن النهاية هنا باهظة التكاليف:

أ– من الناحية الجسمية والنفسية على سواء [1]

(١) البعث الإسلامى جمادى الأول ١٤٠٥.

قال العلماء :(يُؤَثِّر الغضب وتوتر الأعصاب على أجهزة الجسم المختلفة، حيث يتأثر ما يسمى "بالهيوتلامس (تحت المهاد) فى الجزء الأوسط من المخ.

ويرسل إشارات إلى الغدة النخامية والغدة فوق الكلية فتفرز مادة تسمى "الادرينالين" الذى يزيد من سرعة ضربات القلب ويؤدى إلى ارتفاع ضغط الدم "وزيادة الدورة الدموية فى الأطراف كما لو كان الشخص يتأهب بدخول معركة.

كما أن توتر الأعصاب المستمر يؤدى إلى اضطرابات فى مركز التحكم فى الدورة الدموية، فيرتفع ضغط الدم ،وتتأثر تبعاً لذلك شرايين الجسم بما فيها الشرايين التاجية وهى تغذى القلب. وشرايين المخ كذلك.

وأعصاب المعدة وقد تنتهى الحالة بمأساة . . كالذبحة الصدرية) ونعوذ بالله منها

ب- ومن الناحية الشكلية . .

فلو نظر الغاضب إلى صورته فى المرآة لأنكر ملامحه التى تغيرت تماماً . . ولو علم الغاضبون ما يصيبهم حينئذ من خلل لما كان فى الأرض متشنجون!!

جـ- ومن الناحية الاجتماعية . .

سوف تفقد أصحابك يوماً بعد يوم . . ثم تبحث عن صديق لتعاتبه فلا تجد.

ثم . . وإذا كان لك لسان تكيل به الصاع لغريمك صاعين . . فإن لغريمك لسان.

أيضاً . . وعليك أن تواجه الطوفان وحدك:

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

إذا الحلم لم يغلب لك الجهل لم يزل

عليك بروق جمة ورواعد

إذا أنت لم تترك طعاماً تحبه
ولا مقعداً تدعى إليه الولائد
تجلّلتَ عارا لا يزال يشبه
سباب رجال: نثرهم والقصائد
وصدق ابن القيم حين قال:
(ما انتقم أحد لنفسه إلا ذل)
وإذن . . (فالواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة وترك الخروج لملاقاة الإساءة . .
إذ لا سبب يسكِّن الإساءة أحسنُ من الإحسان . .
ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشدُّ من الرد عليها بمثلها).

منشأ العفو

عندنا . . وعندهم

إن الفضائل تنبع –وفى مقدمتها العفو– من معنى الإشفاق على الإنسان . . حيثما كان . . رأفة به وتقديراً لإنسانيته . . واحتفاظاً به معناً على درب الحياة فإذا عفا المسلم:فقادرا ومقدراً . . لا يستهين بعفوه أحد. .

أما العفو على الطريقة الأجنبية . . وفى غياب الإسلام . . فهو المحكوم بالمنفعة الشخصية . . ومن هنا كان شعارهم:

اغفر للمذنب. . فإن ذلك يقتله!

ونحن لا نغفر أو نعفو إرادة قتل الآخرين . .

لكننا نتجاوز . . من أجل أن نكون معاً على الطريق . . فنحيا ويحيا غيرنا صادرين عن نوايا طيبة.

وإذا ترتب على عفونا هياج الظالم . . فليس هذا من مقاصد العفو عندنا . . ولعلنا نذكر هنا ذلك الرجل الذى كان من ضحايا "الحجاج بن يوسف" والذى

رأى عدوه "الحجاج" مشرفاً على الغرق . . فأسرع لإنقاذه فلما عوتب في ذلك قال:

أضن عليه أن يموت شهيدا!!

فانظر كيف كان العمل في ظاهره مقبولاً . . لكنه صادر عن رغبة لا يقرها الإسلام.

أهمية الصبر

في تحقيق العفو

من قوانين النفس الإنسانية:

صعوبة تغيير المألوف من حياتها . .

ومن هنا يقرر البصراء بتربيبة النفوس:

أنه: (لو كان هناك نازلة تُلم بالإنسان دون أن تغير شيئاً من مألوفاته لما حس لها بألم.

ولذلك تخف وطأة الحوادث ويهون وقعها . . على من تتوالى عليهم المصائب . . ويمارسون تقلبات الأيام.

ولو أن الرجل ينظر إلى غير الدهر نظره إلى العوارض التي تستهدف كل إنسان ولا يبعد أن تباغته في كل آن ومكان . .

لتلطفت عنه لذعتها التي يحس بآلامها من تداهمهم على غرة واطمئنان)

ولعل هذا بعض ما يشير إليه قول تعالى :﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع . . ﴾[1] وهكذا كان المسلمون الأوائل.

لقد تمرسوا بعزائم الصبر وتقلبات الأيام التي عدوها جزءاً من غذائهم اليومي.

وكانوا على حد قول الشاعر:

---

[1] سورة البقرة الآية (١٥٥).

وإنا على عض الزمان الذى بنا

نعالج من كُره المخازى الدواهيا

لقد حوصر المسلمون . . وتقرحت أشداقهم من طول ما أكلوا من ورق الشجر اليابس، وفى الصيام جاءوا باختيارهم . . فنجحوا فى الامتحان بدافع من:

الإيمان المانع من الوله بالحياة . .

والثقة بالله التى يواجهون بها الزلازل . .

والصبر الجميل . . الذى يجدون فيه السند . . والعوض . .

وتظل قيمة الصبر تمده بالوقود:

فلا يعود يخشى أحداً . .

فيمارس حياته . . بلا قيود . .

ويباشر عمله . . بلا تردد. . .

ومن وراء ذلك كله: احساس عميق بالحرية . . حرية الباطن.

وهى المناخ الذى تزدهر فيه الملكات . . وتستخرج النفس قواها الضابطة والتى:

تحبس النفس من الجزع . .

واللسان عن الشكوى . .

والجوارح عن التشويش . .

وعندما تتألق قيمة الصبر فى كيان الإنسان . . يحس فى ذات اللحظة بالرضا والتفاؤل وما يترتب على ذلك من انطلاق فى الآفاق يبرز ما فى باطن المؤمن من كنوز . .

كل ذلك على مستوى الفرد . . .

وعلى مستوى الأمم:

تقول باحثة مسلمة:

(لا مجال للصراخ أو الأنين والشكوى للآخرين:

وتذكر هنا النظرية الحديثة وهى: الولادة بدون ألم - وهى تعتمد فى أساسها على أن المرأة مهيأة لعملية الولادة والحمل - وإذا كانت ثمة ميكانيكية مهولة. تجرى فى الجسم البشرى. دون أن تحس بضرباتها الموجعة أو إيقاعها العنيف. وتفاعلاتها المثيرة. مثل هضم الطعام والتنفس- كذلك عملية الولادة بالنسبة للمرأة:

الجنين يدفع بنفسه غريزياً إلى الخارج . .

والرحم ينقبض ويتقلص ليقذف بحمله . .

فإذا صرخت المرأة . . وتعالت صيحاتها. أهدرت قوة الدفعة. وبعثرت جهودها. بل إنها تعرقل عمل المخ المنظم للعملية كلها. وتربك نظام إشاراته السريعة وأوامره . . ويتضاعف الاحساس بالألم.

كذلك الصبر: يحتاج إلى الصمت . .تحمل الضربات القاصمة حتى تتحول إلى قوة دافعة. وطاقة تحمل وقدرة على الصمود.

لا أنين ولا صراخ. لكى نهيئ للعقل مهمة عمله فى التحليل والتأمل والتدبير حتى تحتفظ بصفاء المجال لكل القوى الداخلية . . ثم يأتى الفرج . . وهكذا من المعاناة تولد من جديد)

الصبر الجميل

إن الأحداث قد تكون أكبر من طاقاتنا . . وإذن . . فلا سبيل بين أيدينا إلا الصبر . . والصبر الجميل الذى لا نشكو فيه الخالق إلى المخلوق.

والصبر الجميل لا يعنى ذلك الخمول والاستسلام الذليل للظلم وإنما هو على ما يقول الباحثون:

(يصف القرآن الكريم الصبر فى كثير من آياته بأنه "الصبر الجميل" ووصف الصبر بالجمال. هو من روائع الأوصاف فى أدب القرآن بل فى أدب العالم كله.

فالصبر الجميل. يقدم لنا صورة للإنسان عندما يكون متأملاً في داخله. ومع ذلك: يحتفظ وجهه-رغم الألم- بالبشاشة والسماحة. وبذلك تكون البشاشة والسماحة مع الألم المكتوم في النفس هي الجمال.

ويكون الصادر الذي يتألم ويتحمل هو وحده: الجمال . .وتكون صورة الصبر الجميل هي الصورة الرائعة التي تمس أعماق القلوب.

ولاشك أن القادرين على الصبر الجميل هم القادرون أيضاً على مواصلة الحياة والوقوف في وجه متاعبها وآلامها ومفاجأتها الكثيرة أما الذين لا يملكون القدرة على الصبر، ولا يملكون تلك الموهبة الفطرية الإلهية التي تجعل من صبرهم "جميلاً" فإنهم ينكسرون بسرعة ويخسرون معركتهم في الحياة بيسر وسهولة.

وقد يبدو أن الصابرين هم من البشر الضعفاء في نظر الذين يصدرون أحكاماً شكلية سريعة على الناس، فالصبر عند البعض هو فلسفة يؤمن بها كل إنسان قليل الحيلة، ليس لديه ما يواجه به حوادث الأيام إلا بالصمت والألم المكتوم.

ولكن الحقيقة ليست كذلك، فالصابرون ليسوا ضعفاء بالصورة التي يتخيلها البعض، وهم ليسوا عاجزين عن "التمرد" بل هم القادرون عليه عند الضرورة، وعندما تأتي هذه الضرورة يكون تمرد الصابرين قوياً مثل غضب الحليم

كان قيصر "١٢٠-٤٤ قبل الميلاد" أعظم أباطرة الرومان يقول عن أحد رجاله ما معناه:

إنه نحيف وهو لا يأكل كثيراً. وهو طويل الصمت، لا يتكلم إلا كلمات قليلة، وكثيراً ما يبدو على وجهه علامات التفكير والتأمل ولذلك فأنا لا أخاف من أحد كما أخاف من هذا الرجل.

[illegible] أن هذا الرجل [illegible] البسيط [illegible] الذى لا يملك كثيراً ولا
[illegible] أكثر [illegible] من [illegible] وأنه التاريخ القديم
[illegible] التى أصبحت [illegible] ولم يكن لديه [illegible]
[illegible] لكن هذا الرجل الحبيب البسيط فى طعامه وحديثه هو العقل المدبر
[illegible] التى [illegible] يمثل [illegible] فى [illegible] التاريخ حقاً له على قراره
[illegible]

[illegible]

[illegible]

والخصومة [illegible] إذا استدام وطال عليه الأمد، [illegible] أمراً بعيد المنال، بسبب [illegible] الأصلية من تراكمات أو [illegible] عاملاً مساعداً على تجذير الخصومة [illegible] فى الأرض، بحيث يصعب علينا اجتثاثها واستئصالها.

والخصومة يمكن تشبيهها بالالتهاب الذى يصيب أى جهاز فى الجسم، فإذا لم نعالجه [illegible] أصبح التهاباً مزمناً، وصار من شبه المستحيل أن نقضى عليه، أو نوقف تطوره ونموه الخبيث، ويجب ألا نسمح لاعتبارات الكرامة أن تكون سبباً فى إحجامنا عن أن نكون البادئين بالخطوة الأولى للصلح أو لتصفية الخلاف . .

فالبادئ هنا هو الأكرم . . ومبادرة أحد الطرفين بالصلح لا تنبئ عن موقف ضعف، بل عن موقف تعقل وحكمة، وهى تحسب له أو لها، ولا تحسب عليه أو عليها . . وإن باءت المبادرة بالفشل بسبب تعنت الطرف الآخر أو

تصلبه فلا ضير ويمكن تكرار المحاولة بعد برهة وجيزة من الزمن، أو إدخال طرف ثالث، إن كان الموقف يسمح بذلك . .

فإن باءت كل المحاولات بالفشل، فقد بذلنا ما فى وسعنا ولا لوم علينا، ولعل الطرف الآخر أن يراجع نفسه بعدها، وهذا يحدث كثيرا فيبدأ هو فى الاتصال بنا . .

الحياة قصيرة، وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة عميقة وشاملة، فسوف نجد أن لا شئ فيها -تقريباً- يستأهل كل ما حشدناه من بغضاء وكراهية لطرف الخصومة أو النزاع، وكل الأمور تبدو بعد فترة أهدأ وأقل إثارة مما بدت عليه وقت حدوثها . . الشئ الذى اعتبرناه -وقت حدوثه- أنه شئ لا يغتفر وأنه لا يمكن التساهل فيه، نجد بعد فترة أنه لم يكن بهذه الجسامة، وأنه لم يكن يستوجب كل هذه الحساسية تجاهه، انفعالات اللحظة لا يجب أن نوليها اهتماماً زائداً عن الحد، وان نتعقل فى إصدار الأحكام على الناس، وألا نأخذهم بالظنون أو أن نفترض سوء النية فى تصرفات الآخرين -أقوالهم وأفعالهم- وألا نتصرف إلا على بينة وإذا تصرفنا فدون مبالغة فى رد الفعل، ودون أن نهدم الجسور التى بيننا وبين الناس، بل نترك شعرة معاوية ولا نقطعها . . كما أن الحكمة قد تقضى أن نبلع شيئاً من كبريائنا فى بعض المواقف الحرجة، إبقاء على من نحب وحتى لا تتطور الأمور إلى تراشق بالألفاظ الجارحة، تجرف أمامها كل شئ جميل فى العلاقات بيننا وبين من نحب . . النظرة البعيدة لابد أن تحكم تصرفاتنا وليس انفعال اللحظة والذى يتضاءل ويتلاشى بعد حين . .

ويبدأ الندم على التسرع والطيش والاندفاع . . والندم لا ينفع ولا يرد ما فقد.

أيها القراء الأعزاء . . أيتها القارئات العزيزات . .

لا يجب أن نتلكأ أو نتردد فى فتح صفحة جديدة لأنفسنا بالتوبة حتى لا تحيط بنا الذنوب، فتصبح كالشرنقة تلتف حولنا ، وتعيق حركتنا، وتحول دون اعتناقنا . . فالنجاة . . النجاة . .

ولنفتح صفحة جديدة فى كل خصومة أو سوء تفاهم مع الطرف الآخر بمبادرة منا، وليكن شعارنا قولاً وعملاً:

"عفا الله عما سلف")

الصبر - الأجمل

إذا قال علماؤنا الصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه . .

فقد كان هناك صبر أجمل . . هو ذلك الذى لا يكتفى فيه المظلوم بالكف عن الشكوى . . وإنما كان من الجمال بحيث كان يدعو لظالمه بالمغفرة . .

وكذلك كان أحمد بن حنبل رضى الله عنه:

لقد ضرب فى فتنة القول بخلق القرآن . . ضرب ضرباً لو ضربه الفيل لصرخ !!

روى ابن حبان بسنده فى روضة العقلاء[1] قال:

(كان لنا جار ببغداد كنا نسميه: طبيب الفقراء. وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم. فقال لى:

(دخلت يوما على أحمد بن حنبل، فإذا هو معموم مكروب فقلت: مالك يا أبا عبد الله؟ قال: خير، قلت: ما الخير؟ قال:

امتحنت بتلك المحنة. حتى ضربت ثم عالجونى وبرأت.

إلا أنه بقى فى صلبى موضع يوجعنى هو أشد علىّ من ذلك الضرب . .

ورغم فداحة العلة . . إلا أنه وفى لحظة الألم كان يدعو لمن ظلمه قائلاً:

اللهم اغفر للمعتصم . .

---

(١) ١٦٤-١٦٥.

وكلما حاول الطبيب [illegible] لا يزيد على قوله:

اللهم اغفر للمعتصم . .

ثم هدأ وسكن . .

وقال له الطبيب وهو يحاوره: يا أبا عبد الله:

إن الناس إذا [illegible] للمعتصم [illegible]

إنني فكرت فيما [illegible] في يوم القيامة [illegible] في حل!!

إن الناس يتصورون أن الضعفاء والصابرين لا [illegible] أصحاب القلوب الفظة الغليظة، الذين لا يمكنهم تحقيق نجاح دائم.

إن المحبين . . والعقلاء هم أصحاب المواقف الإنسانية . . وهم [illegible] القادرون على [illegible] وتحقيق [illegible] الناجحة حتى آخر الطريق . . ولو طال بهم المسير.

والحياة تعلمنا دائماً . . وبتجاربها العامة والخاصة

تعلمنا أن الصبر الجميل يخفي وراءه قوة كامنة فيه.

وأن الضعف الذي قد يكون ظاهراً في الناس . . هو في حقيقته قوة أخرى . . مقلوبة على رأسها، وحين تعتدل . . فإنها تتفجر.

والحياة تقول لنا سراً وعلانية:

إنه حتى العميان . . . يبصرون!!

والقلب الإنساني في حاجة إلى تربية وتوعية، وغذاء روحي صحي.

فليس بالعقل وحده يمكن اكتشاف أسرار الحياة وعجائب الدنيا.

ولابد للقلب أيضاً أن يعمل بهمة وبقوة ونشاط.

فالقلوب العاملة النشيطة والتى تنبض بالحنان والرحمة والعطف . .هى التى تساعدنا على أن نرى فى حياتنا العامة والخاصة ما لا تراه العيون.

وبدون هذه القلوب فإننا نضل ونشقى).

وأكبر الضلال أن لا نرى تلك القوة التى فى الصبر. والصبر الجميل فى الهجر الجميل أيضاً . .

وهذا هو بعض ما نتعلمه فى مدرسة السلف الصالح رضوان الله عليهم:

إن الأقدار المؤلمة . . تحتاج إلى الصبر . .

كما تحتاج الأقدار الملائمة . . إلى الشكر . .

وقد سئلت امرأة عن صبرها . . وحمدها الله لما قطع إصبعها قالت:

إن حلاوة الأجر على المصيبة أنستنى مرارة صبرها . .

لقد ارتفعت المرأة من أفق الصبر الجميل . .

إلى أفق الرضى . . فرضى الله تعالى عنها.

وما تزال الطبيعة الإسلامية تجود بما فيها من كنوز الصبر . . بل والاصطبار وتحدى الأحداث الهاجمة . .

ومن أسلحة هذا التحدى ما يملكه المصاب من وعى وإدراك لمغزى المصيبة وما يترتب عليها من ثمرات يصلح الله تعالى بها من حاضر المصاب ومستقبله . .

وقد قال العارفون فى ذلك ناصحين:

ستة أشياء . . إذا ذكرتها هانت عليك مصيبتك:

١- أن تؤمن بأن كل شئ بقضاء الله وقدره، وأن الجزع لا يرد عنك القضاء.

٢- وأن ما أنت فيه أخفُ مما هو أكبر منه

٣- وأن ما بقى لك أكثر مما أخذ منك.

٤- وأن لكل قدر حكمة: لو علمتها لرأيت أن المصيبة عين النعمة.

٥- وأن كل مصيبة للمؤمن لا تخلو من:

ثواب. ومغفرة. وتمحيص. ورفعة شأن. أو دفـــع بـــلاء أشـــد.

٦- ومن فوائدها اليقين بـأن مـا عند اللـه خـير وأبقـى.

ومن هـؤلاء الذيـن تمثلـوا الثمـرات اليانعـات . . ذلـك الرجـل الـذى عَـزّى عروة بن الزبير رضـى اللـه عنـه:

فقد رووا أن "عُروَة" عـاد مـن العراق. وقـد قطعـت سـاقه. فلمـا دخـل عليـه أحد مـن أصدقائـه . . كشف عـروة عـن رجلـه. فـأراد هـذا الصديـق أن يعزيـه فـى ساقه المقطوعـة فقال لـه صديقـه:

مـا أعددنـاك للسباق . . ولكنـا أعددنــاك لـلرأى!!

فقال عـروة علـى الفـور:

مـا عزانـى أحد بمثـل مـا عزانـى هـذا!!

فـانظر إلـى الفهم العميق لقضـاء اللـه وقـدره . .ومـا فيهمـا مـن خـير للمسـلم الذى قد يـأخذ اللـه تعـالى منـه عضـوا . .لكنــه يسـتبقى أعضــاء . . ويسـلبه ولـداً . . ويبقـى لـه أبنـاء . .

وأن مـا بقـى بعد المصيبـة أعظـم قدراً ممـا أخـذ . .

فإذا بقى للعـالم عقلـه ورأيـه . . فمـا فاتـه مـن الدنيـا مـن بعد شـئ يبكـى عليـه.

ثـم كـان مـن هـذه الاستجابة السـريعة مـن قِبَـل عـروة . .الـذى فهـم الـدرس. . وأدرك معنـى المنـة مـن ربـه تعـالى . . وذلـك مـن خـلال المحنـة التـى يعيشــها . .

ولعلـه لا يكـون استطراداً مـا تحكيـه الروايـات عــن واحـد مـن أولاده هـو . . هشـام بـن عـروة . . عندمـا واجـه مصيبـة سـوء الظـن بـه- وهــى أحـدى الكُـبر- لمـا حـاول تقبيـل يـد المنصـور الخليفـة العباسـى . . فلـم يمكنـه منهـا قـائلاً:

نكرمـك عنهـا . . ونكرمهـا عــن غـيرك . .

ولقد حـاول المتشـدقون احتسـابها إحـدى أخطائــه . .

وممــا خفـف عنــه ذلـك المصــاب موقــف أصدقائــه الذيـن خففـوا عنـه وقــع المصيبـة لمـا قـالوا:

إنـه يـرد جميـلاً للمنصـور لأنــه:

١- قضــى دينـاً كـان عليـه.

٢- وكـان مـع ذلـك شـريفاً مـن الأشـراف -أى المنصــور-.

٣- إلـى جـانب كونـه عالمـاً.

٤- ومن أبنـاء صفيـة أخـت العبـاس رضــى اللـه عنهمـا.

ومـن الـدروس المسـتفادة هنــا :

أن المصيبـة لا تؤثـر بذاتهـا . .ولكـن بدرجــة الإحســاس بهــا . .

وقـد حـرص علماؤنـا علـى التخفيـف مـن حدتهـا بمثـل هـذه النصـائح الغاليــة. .

فلمـا فتـر الإحسـاس بهـا . . هـانت علــى أصحابهــا . .

بـل إن المحنـة قـد تسـتحيل منحــة بهـذا الإحســاس الـذى يغيـب أو يفـتر عنـد المصيبــة . .

ثـم يشـتد ويتوهــج عنـد النعمــة . . ارتفاعــاً بــالنفس لتعيـش فـــوق مســتوى الألـم:

قـال رجـل لابـن تيميـة -رحمـه اللــه-:

كيـف أصبحـت؟ قــال:

أصبحـت بيـن نعمتيــن: لا أدرى أيتهمــا أفضــل:

ذنـوب سترهـا اللـه . .فـلا يعيرنـى بهـا أحـد

ومـودة قذفهـا اللـه فـى قلـوب العبـاد. لا يبلغهـا عملـى . . وليـت شــعرى:

إنهـا لقصـة كـل مسـلم اليـوم . . والـذى يـرى مـن نفسـه عيوبــاً أو ذنوبــاً . . سـترها اللـه تعـالى عليـه . .

وإنهـا لنعمـة كـبرى . .ولكــن بــلادة الإحســاس . . وطـول الألفـة يلهينـا عـن قيمتهـا . . ثـم عـن شـكرها . .

ونعـوذ باللـه مـن الخـذلان . . ونســأله:

الصبـر والسـلوان . . والشـكران.

أمـا بعـد . .

فنذكـر هنـا ملاحظـة بعـض علمائنـا . . علـى قـول بعضهـم. الحمـد للــه الـذى لا يحمـد علـى مكـروه سـواه . . حيث يعترض علـى هذه الصيغـة . . لمــاذا؟

١- لأن المقـام . . مقـام مـدح وثنـاء علـى اللـه . . وهـذا ممـا ينافيــه . .

٢- ثـم قولـك "علـى مكـروه" يعنـى أنـك كــاره . .

فقل "الحمـد للـه الـذى لا يحمـد علـى كـل حـال سـواه.

وهـو معنـى الحديث : الحمـد للـه علـى كـل حـال.[1]

مـن عوامـل الصـبر

﴿يـا أيهـا الذيـن آمنـوا اصـبروا وصـابروا ورابطـوا واتقـوا اللـه لعلكـم تفلحـون﴾[2]

عـزاء وسـلوى

١- وممــا يتعــزى بــه الأبريــاء علمهـم بـأن رسـولهم -ﷺ- لــم يسـلم مــن غمـزات الشـياطين . . شـياطين الإنــس:

ففـى غـزوة حنيـن تبجـح نـاس فقـالوا عـن قســمته -ﷺ-:

(والله إن هـذه قسـمة مـا عـدل فيهـا. ومـا أريـد فيهـا وجـه اللـه)؟!!

ومتـى قيـل هـذا البــاطل؟

فـى حنيـن . . وقـد كـان عندئـذ: كمـا أشــار البــاحثون:

أولاً: كـان نبيــاً ورســولاً.

وثانيـاً: وبعـد مضـى ثمـان سـنوات مـن هجرتــه.

واشـتهاره بـالعدل الـذى شـهد بــه الأعــداء

وثالثـاً: بعـد مـا مكـن اللـه لـه فـى الأرض . .

ولكنهـا الشـياطين تسـتخف ناســاً . . وتؤزهـم إلــى الشــر أزاً.

---

(١) (أخرجه ابن ماجه – فى كتاب الأدب (٣٨٠٣))

(٢) آخر آل عمران آية (٢٠٠)

٢- ومما يتعزى به الأبرياء أيضاً تلك النصيحة التى تقول:

(لأن تكون مظلوماً يرجو الثواب . . خير من أن تكون ظالماً ينتظر العقاب!)

وقد يشتد إحساسك بالظلم . . وفى الوقت الذى يتمادى الظالم فى غيه . .

وإذن . .فأنت مكلف أن تكون عند حسن ظن الناصحين الذين يقولون لك: عليك بالرضا . .والتسليم لله الذى سوف ينتقم لك . .

فما دمت أيها الإنسان لا تملك مفاتيح الغيب . .

وما دامت قدرتك عاجزة عن التحكم فى أحداث الحياة التى تناوشك . . فأنت مطالب برجع أمورك كلها إلى ربك:

العليم . . القادر سبحانه . . ليمنحك بهذا التسليم قدرة على تكييف علاقاتك بالناس من حولك . . فإذا أنت من الطمأنينة على أوفى معانيها . .

تريح نفسك راحة تجعلك أقدر على الإفادة من هذه الأحداث . . على قدر استطاعتك . . بمعنى أن تعترضك الصخرة فى الطريق . . فتتجاوزها . . تتخذ منها درجة فى سلم الصعود . . بدل أن تحبسك . .

إنك إذن . . لا تريح فقط نفسك . . وإنما تريح نفسك

كما وأن المجتمع ليأخذ حظه من راحة أتحتها له حين طوعت علاقتك به . . فتكيفت معه . .ولم تصادمه . . فأسهمت بصبرك فى رسم الصورة العامة لملامحه المطمئنة الراضية.

ليس الصبر ذلك الانسحاب الجزوع من ساحة العمل . .

وإنما هو ضياء:

ويعنى أن فيه ما فى الضياء من:

نور . . وكشف . . وحرارة . . ويساوى ذلك كل المعاناة . .

والتى هى الكدح المشار إليه بقوله تعالى:

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[1]

والصبر درجات . .

فقد تصبر فقط . . فتحط عنك ذنوبك . .

وقد تصبر . . وتحتسب . . أى راغباً فى الثواب . . فترتفع بذلك درجتك . .

وعندئذ يحصل لك فائدتان: غفران الذنوب . .

ثم الأجر . .

ولأجر الآخرة أبقى

لأن الدنيا تذهب . . والأجر باق . .

وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها.

ومن يرد الله به خيراً يصب منه.

وفى رواية: يصيب منه- يعنى يقدر الله تعالى عليه المصائب.

من موانع الصبر: الجهل

وذلك قوله تعالى:

﴿قال إنك لن تستطيع معى صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾[2]

ثم قوله تعالى : ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا﴾[3]

وقوله تعالى: ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا﴾[4]

---

(١) سورة الانشقاق ٦.

(٢) سورة الكهف (٦٧-٦٨).

(٣) سورة الكهف ٧٢.

(٤) سورة الكهف ٧٥.

وفى الآية الأولى: عتاب عام. أما زيادة لك . . فتعنى مزيداً من هذا العتاب . .
كأنما يقول له موسى -عليه السلام-
ألم أقل لك . أنت بالذات . .
إن المصيبة للمسلم . . وليست عليه . .
إنها . . تضيف لحسابه عند الله . . وليست مخصومة من هذا الحساب
وذلك قوله تعالى :
﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . . .﴾[1]
كتب . . لنا . . ولم يكتب علينا.
وليست المصيبة فى ذاتها . . ولكن: بدرجة الإحساس بها . .
والإحساس بها يخف . . بالوعى . . والبصيرة الكاشفة.
وإذا كان قدر المسلم العادى أن يصبر . . فإن قدر الدعاة إلى الله أن يصابروا. أن يجددوا الصبر كلما جدد الأعداء وسائل الكيد . .
ومما يعينهم على الصبر:
أولاً: أنه فى سبيل الله.
ثانياً: نصبر على المدعو فلعل فى إخلاصنا نقصاً.
وثالثاً: فلعل فى وسائلنا قصوراً.
وأخيراً: إنما يستعذب الصابرون البلوى . . لعذوبة المناجاة مع المولى.

حتى لا تكون فتنة

من الصعوبة بمكان أن تحاول إثبات مودة طولها نصف قرن من الزمان!:

فقد تحب الرجل وأصله وفرعه، هذا المدى الطويل، ثم إذا بكلمة طائشة تجرى على لسان ماكر، يترنح بها بناء علاقة ما كان لها أن تكون موضع اتهام.

---

(1) سورة التوبة (٥١).

ويكثر الكلام والملام ، وتعجز عن إثبات حبك ووفائك، كما يعجز الإنسان عن دليل يؤكد به وجود الشمس فى رائعة النهار!

وكيف نثبت ذلك؟!

هذا عبث . .

وفى غمرة العجز عن إثبات الحقيقة الناصعة كأنها الشمس الطالعة تشير أصابع الاتهام كأنها السهام، وتفرض عليك معركة خفية مع أحب الناس إليك، وتتسع دائرة الجفاء.

الحل الإسلامى

وقبل أن تنفرج زاوية الجفاء، وحتى لا يضيع العمر سباباً أو عتاباً، فإن الإسلام يوجهك إلى الحل العملى فى قول بعض العارفين:

إذا وجدت من أخيك جفاء فاعلم أن ذلك لمعصية ارتكبها فاستغفر الله منها وإذا وجدت منه ولاء فاعلم أن ذلك لطاعة منك، فاحمد الله عليها، واستزد منها.

إن الإسلام يمسك بأعصابك حتى لا تذوب كمداً فى غير ميدان، وما أكثر المعارك الدائرة بين الأصدقاء والأقرباء:

كل يكيل التهم مثبتاً مما نسب إليه راجعاً بالفتنة إلى الطرف الآخر.

وليس فى الطرفين من هو أقل من صاحبه، وليس فيهما من هو أكثر خطأً من صاحبه أيضاً.

ومطلوب من كليهما عودة إلى النفس التى عصت ربها فكان هذا الجفاء.

ثمرة العصيان

وهذا هو السبب

إنه داخل النفس، وكل محاولة للبحث عنه خارج الذات مقضى عليها بالفشل.

مثل من التاريخ

من توجيهات الحق سبحانه وتعالى فى غزوة أحد

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[1]

أى عاقبوا بالمثل عدلا، على أن تأخذوا فى اعتباركم أن ما نزل بكم من قبل عدوكم هو فى الواقع عقاب من الله تعالى على معصية بدرت منكم.

﴿بمثل ما عوقبتم به﴾

فحاولوا تطهير النفس أولاً، أغلقوا الباب الذى تأتى منه الريح تستريحوا. وعندما تساءل المسلمون: من أى أفق هبت عليهم رياح الهزيمة بعد النصر.

قال لهم سبحانه:

﴿قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾[2]

إن المواجهة الواقعية لأخطاء النفس من شأنها الوصول بالإنسان إلى لحق فى موضوع النزاع، بدل أن يأخذ الخصوم سمتهم بين مشرق ومغرب فلا يلتقيان.

وهكذا كان المنصفون على مدار الزمان عندما يواجهون المصائب:

﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾[3]

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٦.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٥.

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٤٧، ١٤٨.

العنصر الثالث

ولا يمكن أن نحقق هذا النجاح إلا فى وسط يمهد له تمهيداً بالموعظة تقريباً لوجهات النظر.

ولكننا نجد بعض الناس حول الطرفين يجلسون على كراسى المتفرجين.. إن لم يكونوا لنار الفتنة مؤججين!

ويصبح حاميها حراميها!

وفى استطاعة الإنسان أن ينتصر فى الجبهتين:

على نفسه النزاعة إلى العداوة وتجريم الآخرين.

وعلى عنصر الشر فى مجتمعه بالعودة إلى نفسه بالتهمة كسراً للفتنة، وإقامة لجسور التفاهم بالتوبة لا بالمصانعة.

وإنها لجسور تمتد فوق قلوب عليها أقفالها من الحقد . . ولا عقاب لها إلا أن ترتفع فوق مستواها، وفاء وولاء هو فى نفس الوقت متعة لا يحسها أولئك المتربصون.

فإن فعلت، فإنك إذن من المنتصرين فى معركة فرضت عليك مع أحب الناس إليك!

ويتوارى المغرضون خجلاً. وتنقشع سحب التربص والكراهية، لتسعد النفوس.

عفو القادرين

عفو القادرين

قبول الاعتذار

شيمة الأحرار

مما أدرك الناس كلام الحكماء الأولين:

من طلب عالماً عاملاً . . بقى بلا علم.

ومن طلب طعاماً بلا شبهه . . بقى بلا طعام.

ومن طلب صديقاً بغير عتاب . . بقى بلا صديق.

إذن . . فلنرض بالأمر الواقع . . موقنين بأن كل بنى آدم خطاء.

ولنركز جهودنا لإصلاح ما أفسد الشيطان من علاقاتنا . . لتعود سيرتها الأولى:

ولنفرض أن صديقك أساء إليك يوماً . .

وربما كان هناك طرف ثالث يأبى إلا أن يعيش فى صناديق القمامة فلا ينقل إلا السئ من القول . . فيقع الخصام . . ثم الصدام . .

وها هى ذى نفسك فى انصبابها إلى الانتقام بمنزلة الكرة المنحدرة من رأس رابيةٍ . . إلى قرار . . فيه نار!

ما هو الحل المانع من سقوطها إلى ما فيه هلاكها؟

إن الحل الإسلامى يقول لك هنا:

إذا غضبت . . فإن كان المغضوب عليه أضعف منك . . فتذكر قدرة الله عليك . . والذى تعصيه سبحانه ثم يعفو عنك . .

وإن كان أقوى منك. فتذكر نصرة الله لك . . ونصره خير من انتصارك.

وتنبه جيداً:

أن نفسك التى تدعوها دائماً إلى الانصياع للطاعة . . تتأبى عليك . وها هى ذى تدعوك إلى المعصية فواجبك أن تتأبى عليها . .

فغير معقول أن نطيعها فى الشر . . بينما تعصيك هى فى الخير!!

فإذا جاء صديقك معتذراً . . فقد هيأ لك باعتذاره فرصة العود الحميد إلى الصفاء من جديد . .

وهذا هو رسول -ﷺ- يحرضك على قبول الاعتذار.

وبنفس القوة: يحذرك من تبعات التشدد:

(من اعتذر إلى أخيه فلم يقبل. كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس)

والمكس هو: ما تأخذه حاشية السلاطين الظالمين عند البيع والشراء . .

إن مجئ المخطئ معتذراً معناه:

١- أنه أحس بالذنب . .

٢- وها هو ذا يدرك مالك من فضل يبرئ ساحتك. مما قاله فى حقك.

٣- ثم هو يعلن ذلك على الملأ. فماذا بقى لك عنده؟

إن المكّاس ليأخذ من أموال الناس . . أما أنت فتأخذ بالإعراض من كرامتهم؟!

إنها لحظة قوة. ربما لا تتكرر . . فانتهزها . . ولا تدعها لتفلت منك.

أولاً: لتفوت على الطابور الخامس فرصة الانتعاش . . الباعث على المضى فى هوايته المفضلة . . بالوقيعة . .

وثانياً: لتفر بنفسك من موقف تصير فيه ظالماً بعد أن كنت مظلوماً . . وقبل أن يعود المعتذر . . مكسور الخاطر . .ولكنه سيفوز بأغلبية المشفقين عليه . . ضدك!

ولتسأل نفسك مع العارفين:

(لا يخلو المعتذر فى اعتذاره من أحد رجلين:

إما أن يكون صادقاً فى اعتذاره. أو كان كاذباً:

فإن كان صادقاً: فقد استحق العفو، لأن شر الناس من لم يقل العثرات. ولا يستر الزلات.

وإن كان كاذباً: فالواجب على المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب وريبته. وخضوع الاعتذار وذلته. ألا يعاقبه على الذنب السالف. بل يشكر له الإحسان الذى جاء له فى اعتذاره . . وما أحسن قول الشاعر:

هبنى أسأت وكان جرمى
مثل جرم أبى لهب
فأنا أتوب كما أسأت
وكم أسأت فلم تتب

من أدب الإسلام

فى الاعتذار

ليس يعيب المعتذر إن ذل وخضع فى اعتذاره إلى أخيه . . لكن العيب أن يتخذ من العناد ركوباً يصل بالعلاقة إلى طريق مسدود.

إن هناك قوى عدوانية تتربص بالاثنين معاً:

المعتذر . .

والمعتذر إليه . .

فلم يبق إلا أن نمد جسراً من المودة فوق أدمغة تحاول نسف هذا الجسر أو نَسَفَتْهُ فعلاً . .

وهناك دوافع شيطانية راقدة فى قلوب عليها أقفالها . . تنتظر اللحظة المناسبة . . لتضرب . . وبعنف. . وليس من الحكمة أن نفسح لها الطريق . .

ونذكر هنا قول الشاعر:

نبآنى يا نخلتى حلوان
واذكرا لى من ريب هذا الزمان

واعلما أن بقيتما أن نَحْسا

سوف يأتيكما فتفترقان

ولكننا نذكر مع هذا . . وفوق هذا قول الآخر:

هبني أسأت كما زعمت

فأين عاطفة الأخوة

أو أن أسأتَ كما أسأتُ

فأين فضلك والمُرُوءة

وإذ يحرص الإسلام على قبول الاعتذار . . فإنه يأخذ في الحساب الا يفقد المعتذر كرامته بالإلحاح . .

ولقد وضع للقضية قيوداً وحد لها حدوداً:

يقول أبو حاتم:

(لا ينبغي للمرء أن يعتذر إلى من لا يحب أن يجد له عذراً

ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلى أخيه:

فإن الاكثار من الاعتذار هو السبب المؤدى إلى التهمة.

وإني أستحبُ الاقلال من الاعتذار على الأحوال كلها.

لعلمي أن المعاذير يعتريها الكذب.

وقل ما رأيت أحداً اعتذر إلا شاب اعتذاره الكذب)

وزمام المبادرة في يد صاحب الحق - الذي ينبغي أن يكون مؤمناً كالعشب الأخضر ينحني للنسيم . . مع أخيه . . فيقبل اعتذاره . .

أما تصلبه وتشدده فله مجاله مع الأعداء . . وتلك سمة من سمات المجتمع الاسلامي:

﴿أشداء على الكفـار

رحمـاء بينهـم﴾[1]

ويبقى اللوم -على أى حال- على من بدأ بالخطـأ . .

والذى ينبغى أن يتعلم من التجربة ومرارتها . . حتى لا يعود إلـى مثلهـا

ألا وإن الاعتذار المتجدد بأنك كنت فى لحظة ضعـف . . مـردود عليـك .

إذا تصورت ما يلـى:

صوتك الـذى تخنقـه العـبرة . .

وتعوقـه الزفـرة . .

ومشـاعرك التـى تذوب أسـى وتغلـى اضطرابـاً . .

وواجبك أن تستصلب ارادتك فـى مقارعـة الشـهوات . .

فـإن استرخاء الارادة أمـام شـهواتنا يجعل حياتنـا كلهـا لحظـات ضعـف . .

وكمـا قـال المربـون:

إن طريـق الشـهوات لا ينتهـى:

الخطـوة الأولـى . . غـير مقنعـة . .

والأخـيرة . . غـير ممكنـة . .

والاستسـلام للـنزوة الأولـى . . خسـارة دائمـة.

ورحـم اللـه علماءنـا الذيـن إذا استسـلموا للغريـزة يومـاً. فتراشـقوا ولكـن بـالأزاهير.

عـاتب أحدهم صديقه قـائلاً:

أرى ودكم كـالورد ليس بدائـم

ولا خير فيمـن لا يـدوم لـه عهـد

وودى بكم كـالآس حسـناً وبهجـة

---

(1) سورة الفتح الآية ٢٩.

له نضـــرة تبقــى إذا فنــى الــورد

فكتـب إليـه صديقـــه:

شـبهتَ ودّى الـورد فهـو مشــاكلى

وهـل زهـر إلا وسـيدها الـــورد

وشـبهتَ منـك الـود بـالآس فـى البقـا

ولـم تُخلـف التشـبيه فيــك ولـم تَغْـدُ

فـودك كـالآس المريـر مذاقـــه

وليـس لـه فـى الريـــح قبـل ولا بَعْـدُ

مـن التعقيــد

إلـى البســاطة

إنــه لسـعيد حقـاً . ذلـك الإنسان الـذى يقنـع نفســه بــالتخلى عـن الأمـور التــى لا ضـــرورة لهـــا . . راضيــاً بمـــا يتيســـر لـــه . . مســتدبراً كــل معقـــد أو مفتعــل مـــن شـئون الحيــاة . .

ثـم تدريـب النفـس علـى تحمـل قـدر مـن أخطـاء الآخريـــن . .

وكمـا قيـل:

(فـلا حيـاة بـــلا أخطـــاء . .

وليـس آراؤنـا مقدسـة. بـل هـى قابلـة للتغييـر إذا ثبـت لنـــا عكســـها . .

وعنـدئـذ سـوف نفتـح أعيننـا علــى أشـياء جميلـــة حولنـــا . . حجبتـــا عنهـــا أهواؤنـا . . وأنانيتنـــا . .

وذلــك هــو دور الإنســان الــذى يســعى نحـــو الكمـــال . . ولكنـــه لا يضيـــع طاقتـه فـى طلـب المحـال . .

إن مـن السـعادة أن تصـرف فـى وجهـك عـن كـل شـئ لا ضـــرورة لـــه . .

جـاعلاً مـن البسـاطة أسـلوب حيــاة . .

وتلـك وصـاة الحكمـاء الذيـن يقولـــون:

لابد من البساطة فى النظر إلى أمور الحياة:

وهذا واحد منهم يدعونا إلى الارتباط بالأرض، أى إلى الواقعية، وعدم الانسياق مع الخيالات التى لا معنى لها، والطموحات الضارة التى لا ينتج عنها سوى العذاب والتعب . .

ودعوته لنا التى يلخصها فى قوله "افتح عينيك" إنها تهدف إلى إقناع الإنسان بمراجعة حياته بشئ من الدقة والعمق.

ولابد أن يجد فى هذه الحياة ما يرضيه . . وسوف يجد فيها أيضاً ما لا يرضيه.

وفى أغلب الأحوال فإن ما يرضينا يضيع من أيدينا . . لأننا نغفل عنه. ولا نعطيه الاهتمام الكافى من العناية والرعاية والاستثمار الصحيح. بينما نبذل جهودنا فى مطاردة أمور أخرى وهمية لا نستطيع الوصول إليها والاحتفاظ بها.

ورضى الله تعالى عن أبى خضم:

ولقد قيل عنه:

(أيعجز أحدكم أن يكون . . كأبى خضم؟

كان إذا خرج من بيته تصدق بعرضه على الناس)

إن الرجل لا يجد مالاً ولا جاهاً يتصدق به . . وها هو ذا يعلن عفوه عن كل من ينال عرضه بسوء . .

ليكون ذلك صدقته التى لا يملك سواها . .

ثم كان الإسلام العظيم الذى صاغ هذه النفوس . . كان عوناً لها على أن تواصل مسيرة العطاء . . بما رصد لها من ثواب فى مثل قوله -ﷺ-:

(من تصدق من جسده بشئ . . كفّر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه)(١)

وإنه لمنهج رشيد يعمق مبدأ العفو فى قلوب الناس . .

---

(١) الفخر الرازى ٩/٦

طمعاً فى العفو الأكبر من الله تعالى . . وهو مقصود الإمام الشافعى رحمه الله فى قوله:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت رجائى نحو عفوك سلماً

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته

بعفوك ربى . . كان عفوك أعظما!

دروس . . من الدروس

طالما حفلت الدروس العلمية بالدروس العملية التى تعمق فضيلة العفو ولنأخذ الوزير ابن هبيرة مثلاً:

لقد بارك الله فى عقله فكان مؤلفاً . .

وبارك فى وقته فقسمه بين: الإدراة والتعليم . .

وبارك أيضاً فى قلبه فملأه رأفة ورحمة . .

وفى إرادته فكانت قوية تضبط جموح الشهوة . .حتى لا تستذله الشهوة.

ودليل ذلك كله ما يلى:

روى الإمام أبو الفرج عبد الرحمن البغدادى نقلاً عن ابن الجوزى:

كنا نجلس إلى الوزير فيملى علينا كتابه الإفصاح . .

فقدم رجل ومعه رجل ويقول: هذا قتل أخى . .

فقال ابن هبيرة للمتهم: أقتلته؟ قال: نعم . . جرى بينى وبينه كلام فقتلته!

قال الخصم: سلمه إلينا لنقتله فقد اعترف . . قال الوزير: لا تقتلوه . .

فقال: كيف وقد قتل أخى؟

فاشتراه منهم بستمائة دينار . .وسلم الذهب إليهم وأخذه . .

وكانت المفاجأة أنه قال للقاتل: اقعد ولا تبرح . . ثم أعطاه خمسين ديناراً. . وعبَّر طلاب العلم عن دهشتهم قائلين:

أحسنت . . وبالغت فى الإحسان . . فقال الوزير:

هل منكم أحد يعلم أن عينى اليمنى لا أبصر بها شيئاً؟

فقالوا: معاذ اللـه!

فقال: هذا رآنى ولم يعرفنى . . فكلفنى حمل سلة فاكهة فاعتذرت لأنى أقرأ فى كتاب وقلت لـه: اطلب غيرى.

ولكنه لكمنى . . فقلع عينى . .

فأنا أحسن إليه . . وأعفو . . عند المقدرة!

فانظر كيف مضى العالم فى طريقه الهوينى وهو الوزير فى نفس الوقت . فإذا بهذا البلطجى يكلفه فى غطرسة أن يحمل متاعه إلى بيته ..

ومنع الرجل حياؤه أن يقول لـه إنه فلان الوزير ولكن فقط قال لـه اطلب غيرى . . بل إنه ليعتذر عنه فى قولـه: هذا رآنى ولم يعرفنى.

ولم يكتف الشرير بتعنيفه . . لكنه ضربه ضربة كانت فيها عينة التى طالما دلّ الناس بها على آيات اللـه فى خلقه . .

وكان الدرس الأكبر من كل الدروس أن عفا عنه . . وأعطاه مالاً.

إن تعريف العفو لغة وشرعاً . . يمكن استيعابه فى لحظات . . أما هذا الدرس العملى . . فهو الحمل الثقيل الذى ما يلقاه إلا الذين صبروا . .والذى جعل من الجلسة المباركة شيئاً فى باب القدوة مذكوراً . .

لكن شخصية هذا العالم الجليل، هذا الوزير لم تقف عند هذا الحد . .وما زال عطاء الشيخ موفوراً:

روى عبد الرحمن البغدادى عن ياقوت الحموى (عن أبى هبيرة أيضاً)

رأى جارية فأعجبه جمالها وحسن كتابتها وظُرفها كذلك!

فاشتراها بمائة وخمسين ديناراً، وقال لفتيانه جهزوا لها داراً. وخادمة!

ولكن بائع الجارية . . وبعد ثلاثة أيام . . جاء الوزير بعد ما أرقه الشوق إليها. وعزّ عليه فراقها . .

فلما رآه الإمام الذكى التقى . . فهم كل شئ . . فابتسم . .

فقال لـه الرجل: هذا الثمن . . ثمن الجارية . .لم نتصرف فيــه . .

وقال لـه الوزيـر:

ونحن أيضـاً نقول لك: وهذه سلعتك . .لم نتصرف فيهـا

ثم أعطاه الجارية . . وثمنها. وأثاثها الذى أعده لهـا . .

ودعا لـه الرجل كثـيراً . . كمـا دعـا لــه الرجـل الـذى أفسـد عينــه . . مـن قبل.

وعالم كهذا . . يجمع بين الدين والدنيا جديـر أن يحتـل مكانــه فـى القلـوب بمـا أوتـى من فضل سيملك بـه قلوب الرجـال . . الذين يأسرهم بمعروفـه.

وكان الرجل بحكم منصبـه . . وموقعـه الاجتمـاعى يقيـم الولائـم . .

لكن كـان أكثر روادهـا من الفقراء والعميـان . .

إنــه لا يبحـث عـن الأصـوات فـى زحمـة الانتخابــات . . فيدعــو الوجهــاء ومن لهم تـأثير فـى المجتمـع . .

ولكنـه يتعامل مـع اللـه تعالى . . فيؤثـر صحبـة عيالـه من المســاكين . .

وليت الأمـر كـان يقتصـر علـى مـا ينفقه فـى هذا المجـال . . ومـا يـأخذه مـن وقتـه . .

لكن الأمور قد تتطور إلى حد الإحراج الذى يتحمله . . بمـا يتجمــل بــه. . ذات يوم أقام وليمـة . .

وبعد الأكل شـاهد ضريـراً وقد ضـاع حــذاؤه . .

والذى أثـار الوزير أنـه قد سمعه يقول:

سرقوا مداسـى!! وليس عنـدى ثمـن . . ولــم يبـق إلا أن أمشــى إلــى المســجد حافيـاً . .

وثـارت أريحيـة المضيـف . .الـذى تقـدم إلـى الضريـر شــخصياً ثــم خلــع حذاءه قائلاً لـه:

إلبس هــذا . .

وقال الضرير:

لا إله إلا الله . . كأنه مداسى!

ولقد رجع الوزير إلى مجلسه وهو يقول:

سلمت منه أن يقول: أنت سرقته!!

وهكذا كان يتصرف أعيان المجتمع . . زمان . يوم كان الزمان زمانا.. والإنسان إنسانا. .

يوم أن وجد الفقراء . . والمعوقون . . وجدوا أنفسهم إلى جانب الوزراء . . الذين كانوا يَتَسَمَّعُون وجيب قلوبهم . .ويمسحون دموعهم . . ويردون إليهم حقوقهم . .

يوم أن كانت المناصب مغرماً . . ولم تكن مغنماً!!

فكان هذا التلاحم بين القاعدة والقمة . . فى منظومة رائعة . .

لحمتها الإنسانية . . وسداها الأخوة . . على نحو تختفى فيه الشكوى .. ولا يبقى إلا الحب المتبادل . . بين قاعدة تحتاج . . فإذا القيادة إلى جانبها تلبى نداءها . . بل وتضحى فى سبيلها بممتلكاتها الشخصية . .لعل الفقير أن يرضى..

ولقد رضى الفقير . .وكان رضاه سبيلاً إلى القرار.

ولاحظ مرة أخرى موقف الوزير الإنسان المسماح:

إنه لم يقدم للرجل حذاءه فقط . . إنما . . وقبل ذلك أعاد إليه ثقته بأمة لم تتركه فى أزمته وحيداً . .

وإنما هو فى عينها:

تسمع أنَّاته . . وتأسو جراحاته . . وتأخذ بيده ليستأنف الحياة من جديد.

تأمل هذا . . ثم قارنه بجمعيات دولية تزعم أنها متخصصة فى مساعدة المحتاجين . .وفى سرايفو توزع على الدنيا صورة مندوبيها وهم يقدمون الحليب

لأطفال سراييفو الذين قتلوا أباءهم وأمهاتهم . . ثم تركوهم فى العراء يتامى . . حائرين . .

لقد حرموهم من جرعة الحنان . . وكانت رشفة اللبن بديلاً عن هذا الحنان . . وهيهات!!

أما نحن . . فبحكم الإيمان نفعل شيئاً غير هذا تماماً . .

إنه عطاء الإيمان . .وكان عطاء الإيمان موفوراً.

ونذكر هنا قول ابن المقفع:

(لا يعجبك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان. فإن السلطة أوشك أمور الدنيا زوالا. ولا يعجبك إكرامهم إياك للنسب. فإن الأنساب أقل مناقب الخير غناءً عن أهلها فى الدين والدنيا. ولكن إذا أكرمت على دين أو مروءة فذلك فليعجبك : فإن المروءة لا تزايلك فى الدنيا.

والدين لا يزايلك فى الآخرة).

هكذا كان المؤمن دائماً . . دستوره على ما يقول العارفون:

إذا رأيت إخوانك يكرمونك . .فقل:

هذا من فضل ربى

وإن أهانوك فقل:

هذا من ذنوبى

وبهذا الأسلوب يوفر أعصابه حتى لا تتبدد فى غير ميدان . .راجعاً على نفسه باللوم دائماً . .لتظل محاولات الصعود مستمرة . .أيضاً . .ودائماً!

أما بعد . .

فقد نشرت الصحف عن مجند فى دولة أجنبية:

أنه بينما كان ينظف الطريق داخل المعسكر. إذ مر به رجل عسكرى . . فطلب منه هذا المجند أن يشعل له سيجارة . .

فلما مضى قيل للمجند:

أتعرف من أشعل لك اللفافة: إنه الجنرال القائد!

فلحق به المجند خائفاً معتذراً . . فقال له الجنرال:

لا تحاول مرة أخرى . .وحاذر أن تطلب مثل ذلك من ملازم!!

ومع تقديرنا لسماحة القائد . .إلا أن أفق العفو العالي والذي رسمه الإسلام يظل عالياً . . عالياً متجاوزاً هذا النموذج الضئيل . .وما يتباهى به بعض كتابنا . .في هيام شاهد بأنهم لو عرفوا الإسلام لما كان هذا الهيام.

من خصائص المتسامح

من خلال موقف ابن هبيرة تتضح لنا ملامح الرجل المتسامح:

فالمتسامح رجل حر . .يتصرف كيف يشاء . . قوى الإرادة:

يملك قوة الأعصاب اللازمة عند الغضب . .أكبر من قوة المصارع الذى يغلب بها خصمه فى المباراة . .

وذلك معنى حديث:

(ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب)[1]

ثم هو قادر على أن يتعامل مع خصومه بأفضل صور التعامل . .

غير مبدد طاقته فى المباترات والمبارزات . .

وهو ذلك القاضى . .المتربع على المنصة: يحكم على الناس . .أوليهم . . إلى جانب ما يحققه ذلك من اعتزاز بنفسه . . التى خاض بها المعركة. . ثم انتصر على نوازعه . .

متجاوزاً اللحظة الحاضرة . .مستشرفاً آفاق مستقبل أفضل . . سوف يجد فيه ما يعز به . .

والذى يغريه بمزيد من التسامح . . وبخاصة عندما تسعده الأيام . . بمن أساءوا إليه وقد قصدوه نادمين . أو مستنجدين.

---

(١) الحديث رواه الإمام البخارى فى كتاب الأدب (٦١١٤).

ويرحم الله معاوية رضى الله عنه:

قال يوماً لأبى جهم العدوى:

أنا أكبر . . أم أنت يا أبا جهم؟!

فقال:

لقد أكلت فى عرس أمك هند؟!!

فقال له معاوية . . وبلا حساسية:

أكلت عند أى أزواجها؟

فقال:

حفص بن المغيرة!

ولم يزد معاوية رضى الله عنه على أن قال له معلماً محذراً:

يا أبا جهم:

إياك والسلطان . .

فإنه يغضب كغضب الصبى . .

ويعاقب عقوبة الأسد . .

وإن قليله يغلب الناس!!

بل إن أعصابه رضى الله عنه كانت من القوة بحيث تحمل الموقف الأصعب . .

وذلك عندما يخطب. فقال له رجل: كذبت!!

فنزل رضى الله عنه من فوق المنبر مغضباً . .

فدخل بيته. ثم ما لبث أن خرج على الناس . . ولحيته تقطر ماءً . .

فصعد المنبر ثم قال:

أيها الناس:

إن الغضب من الشيطان . .

وإن الشيطان من النار . .

فإذا غضب أحدكم فليطفئ غضبه بالماء . .

ثم استأنف خطبته!!

ولقد كان معاوية منطقياً مع توجيهاته لأولاده ألا يعاقبوا لحظة الغضب!!

وفى رأيى أنه لم يكن بحاجة إلى استئناف خطبته . .

وكان عليه أن يقول بعد ذلك:

قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . .

فقد كان موقفه ذلك أبلغ من ألف خطبة . .

كما كانت توقيعاته . . وحكمته فى تصريف أمور الدولة . .

أبلغ من كل توجيه وفوق كل انفعال:

فقد أرسل إليه أحد عماله بالبصرة كتاباً يطلب فيه أن يعينه فى بناء داره

بـتى عشر ألف جذع من النخل

فكانت تأشيرته على الطلب هكذا

أدارك فى البصرة . . أم البصرة فى دارك؟!!

العفو ثمرة الإيمان

أما قيمة العفو من الناحية الإيمانية:

فقد قال أحد المتصوفة:

عجبت ممن يكفيه ربه مئونة الحساب للآخرين عما جنوه عليه.

فيأبى إلا أن يحملها لنفسه . ويشقى بها.

وقد كان فى مقدوره أن يلقى بهذا العبء النفسى الجسيم ليتكفل الله تعالى

به . . عنه. ثم يستريح.

ويخلص بقلبه وعقله لما فيه خيره وصلاح أمره.

وهذا هو مغزى هذه الكلمات المباركة من الآية الكريمة:

﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1]

ومعناها:

إن الله تعالى هو كافينا. ويتولى أمورنا.

وهو نِعْمَ من يفوض إليه الأمر كله.

فإن كنت أيها الأخ المسلم قد عجزت عن الصفح عمن ظلمك . .

فلاشك أنك تعذب نفسك التي لم تدربها على سليقة التسامح . . ولن تكون من بعد أهلاً لأن يسامحك أحد!

وإذن: فعجّل بالعفو . .ولا تعجل بالعقوبه:

فإنك لو ثبت مستقبلاً أن غريمك جدير بالعقوبة . . عاقبته.

لكنك لو عجلت بالعقوبة ثم اكتشفت من بعد أن العفو كان أولى . . لم تستطع أن تصلح خطأك . . إلا بالاعتذار . .وما أمر الاعتذار في مذاق الأحرار!!

أصل الأصول

والأصل في ذلك كله: فعله -ﷺ-:

لقد عفا عن وحشي قاتل أحب الناس إليه: عمه حمزة رضي الله عنه . .

ولم يزد على أن قال لما جاءه معلناً إسلامه:

(لا تجعلني أراك)

فلم يخالف الإسلام . . ولم يضر الرجل!

وفي موقفه من "سواد" لما غمزه وهو يسوى الصفوف في بدر . . وعندما طالبه سواد بالقصاص . .

ماذا فعل -ﷺ- :

ماذا يفعل القائد العسكري إذا أحرجه واحد من جنوده وعلى الملأ؟!

---

(1) سورة آل عمران الآية ١٧٣.

يعاقبه . . . ؟

يعرض عنه . . .؟

يعفو عنه . . . ؟ جائز!

لكن الرسول -ﷺ- يعطيه العود الذى أوجعه به . . ليقتص منه!! وليوجعه كما أوجعه!! فذلك ما لا يجوز إلا فى دين الذين صبروا..

العفو

وميثاق الشرف

كان الزوج الراغب فى صفاء العشرة ودوامها يعقد مع زوجته ما يشبه أن يكون ميثاق شرف . . بهذا البيت:

خذى العفو منى: تستديمى مودتى

ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

فهو يطالبها بأن تأخذ ما تيسر من خلقه . . ولا تحاول أن تدقق معه محاسبة إياه على النقير والقطمير . .

وحين يحتدم الخلاف يوماً فيثور غاضباً . . فواجبها أن تتحنى للعاصفة حتى تمر بسلام . . وإلا فإن مقابلتها الغضب بالغضب مثله قاض على فرص التفاهم . .

وإذا كان ولابد من عتاب . . فبعد أن تهدأ العاصفة . .

ويصفو الجو . . وعندئذ يحلو العتاب . .

ويبقى الود ما بقي العتاب

عندما يغيب الإيمان

قتل ولد لأحد الأشراف . .

وجاءه ولى القاتل قائلاً له . . لك كل ما تطلب . . فقال ولى المقتول:

ما أطلبه هو:

١- أن تحيوا لى ولدى

٢- أوتملأوا دارى من نجوم السماء

٣- أو ترسل إلىّ بقومك جميعاً لأقتلهم

٤- ولا أظن بعد هذا أننى أخذت عوضاً!!

وكان منطق هذا الشريف تعبيراً عن روح الاستبداد عندئذ:

فقد كان الحى الأقوى يفعل ما يشاء:

ينكح نساء الحى الأضعف . .بلا مهر . .

ويقتلون حرهم . . بعبدهم

وبالمرأة . . الرجل

وبالرجل . . الرجلين . .

فلما اشتكى المستضعفون لرسول الله -ﷺ- نزل قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى . . ﴾[1]

ولاحظ كيف دمر الشريف كل فرص التفاهم . . وكيف سد كل الطرق إلى العفو بهذا التعنت . .

ولكن الحق تعالى يفتح الطريق واسعاً إلى:

١- العفو . . وهو ترك العقاب.

٢- ثم الصفح . .وهو ترك التأنيب

٣- ثم الغفران . . وهو الستر على المسئ

٤- ويظل المسلم مطالباً بأن يتسنم ذروة الإحسان متى طاوعته نفسه على هذا الإحسان.

ولا يعنى ذلك السكوت على المعاند الفاسق البذئ . .

فلابد من عقابه طبق هذه القاعدة الإسلامية القائلة:

(يكره للمؤمنين أن يُذلوا أنفسهم . .فيجترئ عليهم الفساق . .)

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨.

ويظل العفو بعد هذا الاستثناء . . سيد الموقف . .

(ومن وجب له القصاص فعفا عنه أعطى من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعاً)[1]

وحتى من أخذ الدية لا يصح له أن ينتقم:

و (لا أعفى من قتل بعد أخذ الدية)[2]

(وهو دعاء عليه ألا يكثر ماله ولا يستغنى)

من صور التسامح

التعصب للدين . . كالتعصب للجنس . كلاهما قد يفضى إلى الظلم.

وبخس الناس أشياءهم.

وتاريخنا الإسلامى حافل بالمواقف المشرفة . . الكاشفة عن سماحة المسلمين الذين دخلوا البلاد فاتحين غالبين . ومع ذلك:

عاش أهل الملل الآخرى فى ديارهم آمنين:

لقد حفظ لهم المسلمون حقوقهم. وصانوا حرماتهم . . بل دافعوا عنهم. غائلة المعتدين عليهم . .

ووصل بهم العدل حداً تبوأ المخالفون فى الدين مراتب عليا فى دولة الإسلام . . بلا حساسية.

وهكذا نجح سلفنا الصالح فى إيجاد لون من التعايش السلمى . . مع أهل الأديان . .

ولكننا ننظر اليوم إلى فريق من المتحمسين المسلمين لم يتهيأوا بعد التعايش مع إخوانهم فى الدين . وابتعد بهم الغرور إلى ما يشبه الجزيرة

---

(١) الطبرى فى تفسيره ٢٠٣/٦

(٢) رواه أحمد وأبو داود.

المعزولة . . فى بحر كبير زاعمين أنهم من الدين فى القمة . . بينما يتدحرج الآخرون على السفح . .

وفى مثل هذه النزعة نقرأ قوله -ﷺ- :

(إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم)[1]

هو أهلكُهم. . بضم الكاف . .

وهو أيضاً أهلكَهم . . بفتحها . .

أجل هو أهلكُهم . . أشدهم هلاكاً . .

وبالتالى: أكثرهم سوء ظن بهم . .

فطوح به الغرور بعيداً . . مثخناً بجراح من صنعه هو . .

بعد ما طعن المسلمين فأيأسهم من رحمة الله القريبة منهم . . وجعل من نفسه حكماً . . لا يملك من مقومات الحكم روح الانصاف . .

وفى تاريخنا الإسلامى محاولات تمت فى هذا الإطار . . ولكن العقلاء من أسلافنا . . استوعبوها . . ومضوا بها على سواء الصراط . . فتنزلت بركات السماء . . يوم أن التقى الآباء والأبناء على كلمة الحق:

فى الأندلس: أصاب أهل قرطبة قحط.

فخرجوا إلى الخلاء لصلاة الاستسقاء ومعهم الأطفال والبهائم وسائر الضعفاء . .

وكان قاضى المدينة هو "أبو سعيد البلوطى" ولم يشأ القوم أن يخرجوا إلا معه ليؤمهم فى الصلاة . .

وقد طلبوا منه ذلك . .

فسألهم القاضى:

هل خرج معكم كل من فى المدينة؟

فقالوا:

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى البر والصلة (٦٨٥٠)

ما بقى فيها إلا المترفون الذين لا يقاسون شظف العيش مثلنا.

فأقسم القاضى ألا يخرج معهم حتى يخرج هؤلاء.

وذهب الشباب المسلم إلى العصاة من المترفين . . فدعوهم . . فخرجوا معهم.

ثم أخبروا القاضى بخروجهم.

فاستعد للخروج. ونادى على غلامه أن يحضر الكساء الواقى من المطر.

فقالوا له:

وهل أيقنت أن السماء ستمطر؟ قال: نعم . . ما دام هؤلاء قد خرجوا ليشاركوكم التضرع إلى الله.

و(إذا خضع جبار الأرض. رحم جبار السماء)

وهكذا لقنهم القاضى درساً لا ينسى . .

ذلك بأن المعنى الملحوظ فى الاستسقاء هو التذلل والاستسلام . .

وما دام العصاة قد ذلوا لربهم واستسلموا . . فقد تم معنى العبودية . . التى تستنزل بها بركات السماء . .

لقد حمل الحماس رجالاً على تجاوز إخوانهم فى الدين . . وإسقاط حقهم فى الخروج . . فى الوقت الذى خرج فيه الأطفال والبهائم . . فلما نبههم القاضى إلى الحلقة المفقودة الباعثة على العفو . . استجابوا طائعين . .

وما أحوجنا إلى القلب الوسيع . . والذى يسع الجميع . .

العفو فى الأسواق

إذا كان المسلمون مأمورين بالتسامح طريقاً إلى الوفاق . . وفراراً من آثار الشقاق . . فإن كلا من البائع والمشترى يأخذ حظه الأوفى من هذا الأمر . .

ذلك بأن كلا منهما له غرض يسعى ليدركه:

فالمشترى يطلب السلعة رخيصة وافية الكيل والوزن – جيدة النوع – والبائع يرغب فى تصريف السلعة على نحو يكثر به ربحه وتتسع دائرته . .

وهما معاً محكومان بغريزة غلابة هى: غريزة التملك . .

من أجل ذلك ولحساسية هذه العلاقة - كان التسامح بينهما أمراً مفروضاً محققاً مصلحة الاثنين معاً . .

إن استقصاء الحق . . والتدقيق فى طلبه منفر للنفوس التى من طبعها: أنها تَمقُت من شاحَّها. وفى نفس الوقت تحب من سامحها . .

وقد يخسر البائع. أو المشترى. بعض الدراهم لكنه يكسب قلب صاحبه وهو أغنى وأقنى. بالإضافة إلى أن المسلم مأمور بالإجمال فى الطلب.

وقد كان المسلمون دائماً حراصاً على امتلاك القلوب . . ولم يهمهم ما تحويه الجيوب:

اشترى عمرو بن عبيد إزاراً للحسن البصرى . . وكان بستة دراهم ونصف.

ولكنه أعطى التاجر سبعة دراهم.

فقال التاجر:

إنما ثمنها ستة ونصف، فقال عمرو:

إن الثوب لرجل -يقصد البصرى- لا يقاسم أخاه درهما . .

يعنى: يتنازل عن حقه ليصفو الدرهم لصاحبه . .

وإذا كانت غريزة التملك تدفعنا إلى التحرش . . والاندفاع من أجل أموالنا . . فإن من الانصاف أن ننصت لغرائز أخرى تتقاضانا أن نلبى رغائبها:

ومنها غريزة حب الظهور والذكر الحسن بين الناس . .

والتى نحقق مطالبها المعقولة بالسماحة فى الأموال . .

أو بالتخفيف فى الطلب. أو الإنظار . . إنظار المعسر . . أو إسقاط الحق برمته . .

وفى كل ذلك حسن الثناء وجميل الذكر . .

للمرء بعد المـوت أحدوثـة

يَفْنـى وتبقـى منـه أثـاره

فأحسنُ الحـالات حـال امـرئ

تطيـب بعـد المـوت أخبـاره

لقد كان السلف الصالح حراصاً على تألف قلوب الرجال بما يبذلون من صنائع المعروف . .

المعروف الذى تعطيه أحياناً جوداً لرجل شكور . . .

أو فراراً بالعطاء من نَبْوة كفور . .

ومن قلت صنائعه فى الشاكرين . . وأعرض عن تألف النافرين . . بقى -كما قالوا- محقوراً وفرداً مهجوراً.

قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :ما طاوعنى الناس على شئ أردته من الحق. حتى بسطت لهم طرفاً من الدنيا:

فانظر كيف أقام الخليفة الراشد علاقته بالناس على أساس الحق . . وأن حبه للناس وبغضه لهم إنما هو مردود إلى موقفهم من الحق . . وليس هو الذى يجعل هواه حكماً ومقياساً

ثم هو عليم بطبيعة الإنسان الذى يحب من أحسن إليه . . ومن ثم فهو يسارع فى رضاء من أرضاه فى الحق . . فيعطيه جائزته اللائقة به . .

وقد تذهب الأموال . . لكن يبقى الثناء ذكراً للرجال.

يبقى الثناء وتذهب الأموال

ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم

إلا الجواد بماله المفضال

لا ترض من رجل حلاوة قوله

حتى يصدق ما يقول فعال

كان السلف الصالح مثلاً حياً للتسامح . . في البيع والشراء . . بل وفي كل ميدان كما رباهم الرسول -ﷺ-.

أخرج الإمام أحمد:

أن علياً رضي الله عنه كان يخرج إلى السوق ملثماً . . كأنه واحد من البدو . .

ثم يمضي يساوم تاجراً . . فيشترى منه سلعته بثمنها المقبول.

فإذا عرفه التاجر . . لا يشترى منه بعد شيئاً . . حتى لا يظلم التاجر نفسه فيبيعه السلعة بثمن بخس.

وهكذا يمر على التجار واحداً . . واحداً . .فمن عرفه منهم لا يشترى منه . .

وقد يشترى من غلام حدث لا يعرفه . .

وقد يحضر والد الغلام فينقص من الثمن تكريماً لعلى رضى الله عنه فيرفض في حسم قائلاً:

أخذ رضاه . . وأخذتُ رضاى.

وهكذا لم يكن يستغل وظيفته . . ولا مركزه الاجتماعى فى ظلم الآخرين.

بل إنه مع كبر منصبه . . وكبر سنه معاً كان يرفض أن يحمل له أحد طعامه قائلاً:

أبو العيال أحق بحمله.

ولم تكن هذه المظاهر افتعالا . .وإنما كانت نضح شخصيته التى صاغها الإيمان خلقاً آخر:

هذا الإيمان الذى زين له أن يرتدى الثوب مرقعاً . .لا تزهداً . .ولا رغبة فى الفقر . . وإنما هو الحاكم الذى يربى أمته بالقدوة لا بالكلام المعسول..

ولما قيل له: لِمَ ترقع ثوبك؟ كان يقول:

يخشع القلب . .ويقتدى بـه المسلمون.

ومـا أصـدق النظـرة هنـا وأعمقهـا . . فـإن الشـعوب إذا رأت مـن المسـئول عزوفاً عن الدنيا . . ورغبـة فـى التقشـف هـان عليهـا الأمـر . .

ورضيت بالكفاف . . مادمنـا جميعاً . . فـى الهـم شـرق

وإذا هضم أمير المؤمنين حق نفسه فإنـه أسـرع مـا يكـون . . وأرضـى مـا يكون إذا تعلق الأمر بحق الله تعالى وسنة رسـوله -ﷺ- فعندمـا نـزل قولـه تعـالى :﴿إذا نـاجيتم الرسول فقدموا بين نجواكم صدقـة﴾[1] كـان وهـو ابـن عـم الرسـول . وزوج ابنتـه . . كـان أول مـن تصـدق قبل النجـوى.

ومن قبلـه عثمـان

كـان يطعم النـاس طعـام الإمـارة . . ثم يدخل بيتـه ليأكل كمـا أكل أخ لـه مـن قبل: الخل والزيـت!!

مـع أنـه كـان حاكمـاً . . ومـن حقـه أن يقـوى علـى مهـام الحكـم . .ثـم كـان غنيـاً . . ولا تثريب عليه أن يـأكل مـن عمل يـده . .

وقد دُعـى مرة إلـى وليمـة فقـال لعمر رضـى اللـه عنـه :

قد شـهدنا طعاماً . . لوددنـا أنـا لـم نشـهده

فقال لـه عمـر: ولـم؟

قـال: إنـى أخـاف أن يكـون قـد صـنـع مباهـاةً!

ولـم يكـن الأمـر . . ومضـات فرديـة . . ثـم تنطفـئ . . ولكنهـا كـانت السـمة العامـة لأطهـر مجتمـع عرفتـه الحيـاة.

هـذا المجتمـع الـذى كـان القـدوة الحسـنة . . فكـان شـاهد صـدق علـى أن هـذا الدين حقاً مـن عنـد اللـه . .من حيث صيـاغ هـذه النفوس علـى أعلـى مسـتوى . .

نقول: لـم يكـن الأمـر فرديـاً . . ولكنـه كـان ظـاهرة:

---

(١) سورة المجادلة الآية ١٢.

فهذا أخوهم عبد الله بن عمر رضى الله عنه يضرب للناس الأمثال في الزهد . والعبادة . . وتقدير كرامة الإنسان:

كان يتوضأ لكل صلاة . .

وبين الصلاتين مع المصحف الشريف. .

فإذا جاء الليل . .أغفى إغفاءة الطير!

وانظر إلى خلق السماحة فى معاملته مع عبيده:

لم يلعن عبداً . . من عبيده أبداً . . إلا مرتين:

أما الأولى فقد قال: اللهم العـ..... ولم يكملها . .

وأما الثانية فقد أكملها . . ولعن العبد فعلاً . . لكنه وعلى الفور أعتقه.

جزاء وفاقاً!!

لقد كانوا يعملون للإسلام . . لا لأنفسهم . . يخدمون الإسلام و لا يستخدمونه.

لم تكن بضاعتهم الكلام . . ولكن كانت تطبيق حقائق الإسلام.

العفو فى تراثنا

وقال القاضى عياض فى (الشفا): وأما قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾

فأمر لم يتقدم للنبى -ﷺ- فيه من الله نهى، فيعد معصية ولا عده الله عليه معصية، بل يعده أهل العلم معاتبة، وغلّطوا من ذهب إلى ذلك.

قال نفطويه: وقد حاشاه الله من ذلك، بل ما كان مخيراً فى أمرين:

قالوا: وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه وحى، وكيف؟

وقد قال الله تعالى ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم. أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه فيما فعل، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر، بل كما قال النبى -ﷺ-[1]: عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق. ولم تجب عليهم قط. أى لم يلزمهم ذلك.

ونحوه للقشيرى قال:

وإنما يقول (العفو لا يكون إلا عن ذنب) من لم يعرف كلام العرب، قال: ومعنى ﴿عفا الله عنك﴾ أى لم يلزمك ذنباً. انتهى.

وقد عد ما وقع فى الكشاف هنا من قبيح سقطاته.

وللعلامة أبى السعود مناقشة معه فى ذلك أوردها لبلوغها الغاية فى البلاغة.

قال رحمه الله:

ولقد أخطأ وأساء الأدب، وبئسما فعل فيما قال وكتب، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية، وان معناه أخطأت، وبئسما فعلت، هب أنه كناية، أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب، والتخفيف فى العتاب، وهب أن العفو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة. بحيث يصحح هذه المرتبة من

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى: ٨ - كتاب الزكاة، ٤- باب زكاة الورق والذهب، حديث رقم ١٧٩٠. عن على ونصه: إنى قد عفوت عنكم عن صدقة الخيل والرقيق . .إلخ.

المشافهة بالسوء. أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة (بئسما) المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها.

ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين، أو منفعة للمسلمين، بل كان فيه فساد وخبال. حسبما نطق به قوله عز وجل (لو خرجوا . .)الخ.

وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم....﴾الآية. نعم. كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم أثر ذى أثير[1]، ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة.

ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم، بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالأكاذيب. على أنه لم يهنأ لهم عيش. ولا قرت لهم عين. إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان. انتهى.

قال الخفاجى: وحاول بعضهم توجيه كلام الكشاف بأن مراده أن الأصل فى ذلك، فأبدله بالعفو تعظيماً لشأنه، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية، فلا خطأ فيه.

قال رحمه الله: ولو اتقى هو والموجّه وضع التهم – كان أولى وأحرى. انتهى.

الثانى: استدل بالآية على أن النبى -ﷺ- كان يحكم أحياناً بالاجتهاد، كما بسطه الرازى.

قال السيوطى فى (الإكليل) واستدل بها من قال: إن اجتهاده قد يخطئ ولكن ينبه عليه بسرعة.

---

[1]) أى أول كل شئ.

الثالث: قال الرازى: دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت والتأنى، وترك الاغترار بظواهر الأمور، والمبالغة فى التفحص، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد.

الرابع: قال أبو السعود: تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام -ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير صحيح لنظمهم فى سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين، وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص، لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة، ناشئ عن رسوخهم فى الكذب، ودقق رحمه الله فى بيان لطائف أخر. فلتراج.

الخامس: قيل: نفى الفعل المستقبل الدال على الاستمرار فى قوله تعالى ﴿لا يستأذنك﴾ يفيد نفى الاستمرار. وهذا معنى قول الزمخشرى: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك اهـ.

قال النحرير: ولا يبعد حملة على استمرار النفى كما فى أكثر المواضع، أى عادتهم عدم الاستئذان.

قال الناصر: وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يبدى له معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاماً، فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره، وصلوات الله على خليله وسلامه، لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم.

فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله -ﷺ- بهذه الخلة الجميلة، والآداب الجليلة، فقال تعالى :﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾[1] أى ذهب على خفاء منهم. كيلا يشعروا به. والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه، ربما يعد

---

(1) سورة الذاريات الآية ٢٦.

كالمستأذن له فى الضيافة، فهذا من الآداب التى ينبغى أن يتمسك بها ذوو المروءة، وأولو القوة. وأشد من الاستئذان فى الخروج للجهاد ونصرة الدين، والتثاقل عن المبادرة إليه، بعد الحض عليه والمناداة، وأسوأ أحوال المتثاقل، وقد دعى الناس إلى الغزاة، أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق. نعوذ بالله من التعرض لسخطه.

آفاق العفو

تمهيـــــد

أثناء الحرب العراقية الإيرانية كلفت من قبل البرامج الموجهة بالإذاعة المصرية. بكتابة بعض الأحاديث الموجهة إلى المتحاربين . .

وقد توقفت الحرب . . فتوقفت معها تلك الأحاديث . .

لكنها ظلت بين الأضابير

ثم وجدت من المناسب أن ألحقها بكتاب يتحدث عن العفو تتميماً للفائدة. وتسجيلاً لهذه الحقبة الحرجة من تاريخ أمتنا . .

مع ملاحظة أن الصياغة فى هذه الأحاديث لم تكن على المستوى المطلوب . . من حيث . . لم تكن جودة الصياغة مطلباً . لأنها أذيعت مترجمة بالفارسية . .

الفرس . . فى موكب الإيمان

فيما رواه البخارى

أن رسول الله -ﷺ- وضع يده على سلمان الفارسى ثم قال:

لو كان الإيمان عند الثريا . . لناله رجال. أو رجل من هؤلاء.

وفى جامع الأحاديث للسيوطى:

(أسعد العجم بالسلام: أهل فارس)

هذان حديثان عن رسول الله -ﷺ-:

أما أولهما فيشير إلى صفاء الفطرة لدى الفرس . . وقد أثمرت هذه الفطرة ثمراتها من الفدائية . . والتجرد . . وحب الخير لدرجة أن الإيمان لو كان عالياً عالياً . . فى جو السماء . . لناله رجال من فارس.

وفـازت بـه وتمتعـت بثمراتـه . .أى أن الرغبـة فـى التحـرر مـن عبوديـة الأرض وتقديس البشـر كأنمـا أنبتت لهـم أجنحـة يطـيرون بهـا فـى كـل اتجـاه ولا يستعصى عليهـم منـال . . ولـو بدا أنـه محـال.

فلمـا جاء الإسـلام . . ودخـل النـاس فـى دين اللـه أفواجـا . .كـان الفـرس أسعد الناس بـه . . لمـا وجدوا فيه من قيم الخير والعدل والجمـال.

لقد اتسقت طبيعتهم مع طبيعته . . فكـان لقـاؤهم بالإسـلام فاتحـة خير لهـم.

ولكن مـاذا يحدث اليـوم؟

يريـد أنـاس غربـاء عـن الإسـلام . . تحويـل هـذه الطبيعـة الطليقـة . . الخيّرة عن مسارها السماوى . . وتوجيههـا إلـى الأرض!

لقـد سـعد الفـرس بالإسـلام لمـا يحملـه مـن معـانى السـلام . . والأمـن والرضـا. . والتعـاون مـع إخوتهـم المسـلمين فـى الأمـم الأخـرى مـن أجـل حضـارة إسلامية زاهـرة . .

وسـعد بهـم الإسـلام أيضـاً . . والـذى منحهـم روحـاً جديـدة أحسـوا معهـا بطعـم الحيـاة . .

ثـم . . إذا بشـياطين الإنـس والجـن . . مـن خـارج الحـدود يوحـى بعضهـم إلـى بعـض زخـرف القـول تغريـراً بالشـعب المسـلم . . وتفريغـاً لـه مـن الطاقـة الخيرة.. لتكون دمـاراً ينصـب لا علـى إسـرائيل . . بـل علـى مثلهم ممـن يديـن بديـن التوحيـد. .

الصقـر المحلق فى جو السـماء يـراد لـه أن يتحـول إلـى وحـش أرضـى يهـدم ما بنته يـد الإسـلام من قديم الزمـان.

والنتيجـة؟

النتيجـة: أننـا نسـلم رقابنـا للجـزار ليقطـع رقابنـا بمحـض اختيارنـا!! ويبقـى الإسـلام علـى السـاحة وحـده. بـلا رجـال يدافعـون عنـه . . بعـد أن حكمـوا علـى أنفسـهم بـالإعدام!!

وليست هذه طبيعة أمة إيمانية . . لو كان السلام فى السماء لنالته بأيديها. . وليست هذه طبيعة الإسلام الجامع قوى الأمة لترصد للحق لا للباطل..

ومن سخرية الأقدار أن المسلمين فى المسجد تراهم:

فى نظام . ووحدة . . وتعاون . . فإذا خرجوا من المسجد وسوس لهم الشيطان فحملوا السلاح يقتل بعضهم بعضا وتحول نظامهم إلى فوضى . . ووحدتهم إلى تفرق . . وتعاونهم إلى جدال.

وما تزال عناصر الخير فى أهل فارس تعلن عن نفسها . .لو وجدت القيادة الهادية البانية . .

وعلى هذه الأمة المسلمة أن تتحسس قيم الخير فى كيانها لتحدد موقفها من الإسلام . . وموقعها من المسلمين . . وفى مرآة التاريخ شواهداً على هذه الخيرية نختار واحداً منها كشاهد صدق على ما نقول:

صعد الخليفة عمر على المنبر واستأذن فى أن يخطب . . وتصدى له سلمان الفارسى فقال له:

لا نسمع . .

فلما سأله الخليفة عن السبب قال:

لأن عليك ثوبين بينما فرقت على كل مسلم ثوباً واحداً . .

ونادى عمر من فوق المنبر ولده عبد الله الذى طلب منه أن يبين قصة الثوب الثانى . . فأعلن عبد الله أنه ثوبه هو . . استعاره منه أبوه لطول قامته وعندئذ قال سلمان:

الآن . . قل نسمع . .

إن الإسلام الذى وحد بين المسلمين وحدةً نسوا معها الجنس والقبيلة . . منح سلمان الفارسى حق الاعتراض على الخليفة باللسان . . لا بالسنان . .

ولاحظوا أن عبد الله بن عمر لم يتحزب لوالده داخل المسجد . . ولم يقل لسلمان . . من أنت . . ومن أى وطن جئت حتى تحاسب عمر؟!!

لقد كان الحق أعلى صوتاً . . هذا الحق الذى سيطر على الموقف بلا حساسيات . . وبلا اعتبار للمنصب ولا لرابطة الدم . .

وهذا هو الإسلام . . وهذا هو سلمان المعبر بموقفه عن عنصر الإباء فى الإسلام . . والذى يعبر أيضاً عن طبيعة الاختلاف بين البشر . . هذا الاختلاف الذى يمكن أن يزول بالتفاوض والتفاهم . . وعرض وجهات النظر السلمية وصولاً إلى الحق.

وإلا فإن العنف الضاغط لن يحقق إلا الدمار . . دمار الفريقين . .

المشكلة إذن أن فى أمة الفرس خيراً وكنوزاً مطمورة يراد سرقتها من قبل أعدائها فى الداخل والخارج . . هؤلاء الأعداء الذين يذكروننا بما فعله الأسبان مع الأمريكان قديماً :

لما اكتشف الأسبان أمريكا الجنوبية . . ماذا حدث؟

كان الذهب متوفراً فى أمريكا . . فكانت تستخدم أوانى الذهب والفضة لكثرة هذه المعادن فى أراضيها، فلما جاء الأسبان أرادوا بالحيلة أن يستولوا على هذا الذهب . . وبدل أن ينهبوه علانية فينبهوا الأمريكان إلى قيمته . . بدل هذا لجأوا إلى التمويه:

فأتوا بأوانى نحاسية . .

وعقود من الخرز اللامع . .

وقماش ملون . . فأقبل عليه الأمريكيون . . وأخذ الأسبان الذهب!!

واليوم . .يريد أعداء الأمة الفارسية سرقة القيم النفيسة بهذه الحرب التى تأكل الأخضر واليابس.

إلى السلام من جديد

أوشكت الحرب الإيرانية العراقية أن تأكل الأخضر واليابس بل إنها أكلته فعلاً . . قتل ما يزيد على مليون نفس . .

خلفوا من ورائهم ملايين من الأيتام والأرامل . .

وملايين من المعوقين والمشوهين . .

ثم بلايين من الدولارات التى أحرقتها الحرب . . إلى جانب ما خرب من دور وهدم من مؤسسات . .

ومعنى ذلك أن طاقة الأمة الإسلامية سخرت فى مجالات غير مجالاتها.. بل إنها سخرت لحساب مصالح أعدائنا الذين يعبأ لهم البترول ليعطونا فى نظيره سلاحاً . .

لا لنقتل به إسرائيل . . وإنما نقتل به أنفسنا وحق علينا قوله تعالى:

﴿يخربون بيوتهم بأيديهم﴾[1]

إن ملايين الملايين لم تحقق الهدف وهو الانتصار المزعوم . . والمجد الموهوم . . وانكشف الغرور المذموم الذى كلف أصحابه حياتهم . . دون جدوى. . وثبت يقيناً أن التعصب لا يحل مشكلات الأوطان . . وأن الرصاصة لن تحسم المواقف.

وتبقى الكلمة الأخيرة للحكمة التى تفرض الجلوس حول مائدة المفاوضات ليعبر كل طرف عن أمانيه باللسان . . وبدل السنان . . وبالكلمة . . بدل اللكمة!!

ومن المفيد أن نعرف ما حكاه التاريخ عن هتلر الذى جرّ على قومه الدمار عندما سول له الغرور أنه البطل الذى لا يقهر . .

وأن نذكر آخر ما وصل إليه نابليون الذى قال:

---

(١) سورة الحشر الآية ٢.

(إذا كانت الأمم تريد أن تجنب الحرب فعليها أن تقلع عن تبادل وخزات الإبر)

ويعنى ذلك توقف الحملات الإعلامية التى تلهب المشاعر . . وتغرى بحمل السلاح . . ليكون للكلمة الهادئة أثرها فى كشف الغمة . . والتمهيد لتعايش سلمى يحفظ الله به دماء المسلمين أن تراق هدراً.

وعلينا أن نفهم الدرس البليغ . . والذى أشار إليه بعض الباحثين بقوله:

(إن هناك دروساً بالغة الأهمية يجب علينا أن نتذاكرها بعيداً عن الوضع الخاص وهو: التحام جيشين إلى الوضع العام وهو: تصادم فكرتين:

على رأس هذه الدروس: فشل نموذج التعصب.

فهو ضد روح العصر. وبضاعة غير مرغوب فيها.

فلقد حاربت إيران حرباً "أيدولوجية" اعتقدت خطأ لفترة أنها تستطيع أن تفرض على الآخرين طريقتها فى شئون الحكم وإدارة الدولة.

فالحرب لم تكن حرباً بين جيشين - كما يعتقد البعض لأول وهلة- وإنما كانت حرباً فى بعض جوانبها بين فكرتين مختلفتين للحكم والحكومة.

حكم مذهبى. وحكم مدنى حديث . . .)

ولقد أخطأت أيضاً حين تصورت العروبة فى وضع مضاد للإسلام . . مما أشاع مذهبية بغيضة كادت أن تنتشر فى نسيج الشعب الواحد . .

مع أن العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة . .

وإذن فقد آن الأوان للتآخى والتلاقى على كلمة سواء . .

توجيهاً للطاقة كى تقوى بها أمتنا التى أنهكتها الحرب فتفتحت شهية الأمم الكبرى لابتلاعنا . .

وإذا كانت وحدة المسلمين لازمة فى كل وقت . . فهى اليوم ألزم من حيث إن الدول الكبرى تحاول التوحد اليوم . . لأن هناك أوضاعاً عالمية لا تحقق إلا بهذا الائتلاف . . وأجدر بالكيانات الصغيرة أن تتوحد فى ظل دين . . يقدس الوحدة . . ويدعو إلى السلام.

الجنوح إلى السلم

مبدأ إسلامى

يقول الله تعالى:

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم . . ﴾[1]

تخاطب الآية الكريمة رسول الله -ﷺ- آمرة بالإستجابة إلى مبادرة السلام إذا مال الأعداء إلى هذا السلام ورغبوا فيه.

وإذا أخفى الأعداء من وراء مبادرتهم نوايا السوء . . فتوكل على الله الذى يكفيك أمرهم . . فهو السميع لكل ما يقولون . . العليم بكل ما يدبرون . . فاستظل أنت والذين معك براية السلام ودع النتيجة لله سبحانه وتعالى . .

ومهما حاولوا خداعك . . أو المتاجرة بشعارات السلام . .فلا يغب عن بالك يوماً أن الله تعالى ناصرك عليهم . .

وقد نصرك من قبل فعلاً فى مواطن كثيرة . . ومهد لهذا النصر بسببه الحقيقى وهو التأليف بين قلوب المؤمنين. الذين استحقوا هذا النصر بالوحدة الجامعة والقلوب المتآلفة.

وأنت تلاحظ هنا: فريقين يختصمون:

فريق المؤمنين . .

وفريق الكافرين . .

وفريق المؤمنين مطالب بالجنوح إلى السلم لو جنح الكافرون إليه . .

فإذا كان الفريقان المختصمان من المؤمنين فإن الإستجابة لداعى السلام ليست مشروطة ولا مقيدة لأن الأمر يختلف:

فلا يتصور العقل قتالاً بين المسلمين . .

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٦١-٦٣.

وإذا وقع فهو الشذوذ الذى ينبغى تلافيه فوراً . .

إن قوة المسلمين معدة لمعركة فاصلة بينهم وبين أعدائهم فإذا تسربت هذه القوة فى حروب بينهم . . فقد حققوا لأعدائهم أغلى أمانيهم . . وهم يشعرون أو لا يشعرون.

وفوق ذلك: فقد بدلوا نعمة الله كفراً حين صرفوا طاقاتهم . . وبددوا إمكاناتهم فيما لا يجدى . .

بل فيما يجدى أعداءهم المتربصين بهم.

ومعنى ذلك: أننا نحفر قبورنا بأيدينا . . ونخرب بيوتنا أيضاً بأيدينا . .

وفى الوقت الذى يريد منا إرهاب أعدائه بقواتنا الضاربة وإيماننا القوى. فى هذا الوقت نقدم لأعدائنا أجل الخدمات . . ونتيح لأجهزة الإعلام المعادية أن تسخر من أناس لم يستطع إسلامهم أن يوحد بينهم . . فكيف تقبل منهم دعوة إليه. . وحرص عليه. إذا كانوا بالتقاطع يشهدون على أنفسهم بالتناقض.

وإذا طلب من أمة الإسلام أن تستجيب للسلام . . فذلك فى حال قوتها.. التى تحرس هذا السلام أن تعبث به أيد عابثة . .وذلك هو السلام من مركز القوة. .

فإذا وهنت قواها يوماً . . فلا ينبغى أن تستجيب للسلام . .

لأنه حينئذ استسلام . . وليس سلاماً . .

وهذا ما يفهم من قوله تعالى فى سورة محمد:

﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾[1] أى سيجازيكم عليها.

هذا هو موقع السلام بين قواعد الإسلام:

أمة واحدة تبذل كل طاقاتها فى الإعداد . . العسكرى والنفسى . .

---

(١) سورة محمد الآية ٣٥.

وهو إعداد لا تحمل عليه رغبة فى الانتقام . . وإنما هو حفظ الدماء حتى لا تراق هباء . .وحتى تظل الحياة آمنة مطمئنة . .

إن الله تعالى خلق الأرض صالحة . . لأناس مصلحين يعمرونها بالصالح من العمل . .ويسعدونها بالطيب من القول . .

وكل يد آثمة تلوث هذا الطهر . . وتتنكر لهذا الصلاح . . يد لا يحبها الله ولا رسوله. وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾[1]

يقول الحق سبحانه:

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾[2]

حين تستكمل الأمة قدرتها على القتال . . براً. . وبحراً . . وجواً . . وحين تحقق قبل ذلك قوتها النفسية بإيمانها بربها . . ورسوخ إرادة القتال فى ضميرها . .

حين تبلغ الأمة ذلك . . يكون حديثها عن السلام أمراً مقبولاً . .

السلام الذى فرض على الأعداء فى غزوة بدر . . فمالوا إليه . . بعد أن رأوا بالأمس جنود الحق:

جماعة عزمهم سيار . . إلى الوغى تهافتوا . . وطاروا.

لقد أمر الله الأمة بالاستعداد للقتال . .

بل والبلوغ فى هذا المضمار إلى آخر مستحدثات العصر . . ثم كان اللقاء الحاسم فى بدر فرصة هيأها القدر الأعلى . .

ليرى الأعداء من المسلمين قوة . . قلمت أظافرهم . . وكسرت شوكة الغرور فى نفوس ترتد اليوم على أدبارها . . راغبة فى السلام داعية إليه.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٦.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦١.

وإذن . . فإذا نبتت رغبة السلام فى صدور القوم . . وبعدما رأوا . . وما سمعوا . . فلا بأس من الجنوح إليه حفاظاً على الدماء أن تراق . .

وتقديراً لمعنى السلام ذاته . . والذى لابد منه لسلامة العمل . . ونشر الدعوة التى سوف تأخذ سبيلها فى بحر الحياة خفاقة الشراع.

لكن الاستجابة لرغبة السلام تجيش بها صدور القوم تفرض عليكم استحضار تجاربكم الماضية مع القوم . . فكونوا على حذر . . وهذا ما يشير إليه حرف الشرط (وإن . .جنحوا)

فالاحتفاظ بالقوة الضاربة الرادعة يجب أن يبقى أبداً . .

ذلك بأنه منهم "جنوح" إلى السلم . . ميل إليه . . وربما بقيت أقدامهم ثابتة فى مكانها على أرض الباطل . . فاحذروا . .

وهكذا المسلم الواعى دائماً:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى

بأخرى المنايا . . فهو يقظان . .نائم!!

وأشد ما يجب الحذر منه والاحتياط له:

أن تعتمدوا على قواكم الضاربة وحدها . . ذاهلين عن واهب النصر سبحانه وتعالى:

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

{ . . وتوكل على الله}

الاعتماد على القوة وحدها . . اعتماد على النفس الذى يجب على المسلم البراءة من أن يكله الله تعالى إليها . . حتى لا يضل ويخزى.

إن الأسلحة قد تكون ماضية . .

والخطة قد تكون محكمة . .

ولا قيمة لهذا كله إذا تخلى الله تعالى عنا . .

فلنكن: أهلاً لطاعته سبحانه . . بالتوكل . .

بـالتوكل المدعـوم بالسـلاح . .

لا بـالتواكل اعتمــاداً علـى سـلاح مجلـوب . . لا يخـوض معركـة لـم يرتفـع أهلها إلـى مستواها . . إيمانـاً . . ويقينــاً.

وكـل شـاردة وواردة. محسوبـة عليكم . . فخـذوا مـن الحـذر ركوبكـم . .

وخـافوا ربكـم: ﴿إنـه هـو السميع العليـم﴾

وتجيء آية سورة محمد يتم بها المعنى كمالاً:

﴿فـلا تهنـوا وتدعـوا إلـى السـلم وأنتـم الأعلـون واللـه معكـم ولـن يـتركم أعمـالكم﴾

إنكم الأعلون دائمــاً . . بالإيمـان . .

فـلا تهبطـوا عـن هـذه القمـة . . راضيـن بالسـفح . . راغبيـن فـى السـلام . .

ذلك بـأن السـلام الناشـئ عـن الوهـن . . إنمـا هـو استسـلام . .يردكـم إلـى السـاقة . . ومكـانكم فـى الصـدارة . .

فإمـا النصـر . .

أو إمـا القـبر . .

فإمـا إلـى صداحـةٍ تطــرب الـورى

وإمـا إلـى نواحـة فـى المـآتم.

كرامـة المسـلم بـالتقوى

فـى معركـة أُحد كـان سـعد بـن أبـى وقـاص يرمـى الأعـداء فيصيـب منهـم مقتـلاً . .

وقـد أسـعدت الرسـول -ﷺ- مهـارة سـعد رضـى اللـه عنـه فقـال معـتزاً بـه على المـلأ:

هـذا خـالى . . فليأتنـى النـاس بـأخوالهم!

وهـذا الاعـتزاز بسـبب عمـل سـعد وبلائـه . . بغـض النظـر عـن جنسـه ولونـه..

والذى اعتز بسعد هو الذى اعتز بسلمان الفارسى رضى الله عنه حين قال:

سلمان منّا آل البيت . .فجعله عضواً فى الأسرة النبوية الشريفة . . وغصناً باسقاً فى دوحتها الناضرة . .

لقد كان اعتزازه بسعد ينبع من نفس المعين الذى كان منه اعتزازه بسلمان رضى الله عنه . .

فأساس التقدير هو: العمل الصالح أولاً . .والعمل الصالح أخيراً . .

فمن كان حظه من الطاعة أوفى كان فى المقدمة . . ومن تأخر به عمله لا يسرع به نسبه . .

ولهذا رأينا أناساً من أجناس غير عربية ومع ذلك صاروا بالإسلام أئمة.. وصاروا هم الوارثين لسنة رسول الله -ﷺ- . .

وكم أخرت المعصية أناساً . . ورفع بالطاعة آخرون . .

ومن الحقائق المقررة أننى كمسلم أفضل باسم الإسلام من كان أقرب إلى متابعة السابقين والتأسى بأخلاقهم . . ومهما كانت جنسيته . .

ولهذا كان العلماء يفضلون أهل أصبهان . . لا عصبية لها . . وإنما بمقدار التزامهم بشريعة الإسلام ولهذا قال الأصمعى:

(عجم أصبهان قريش العجم)

فأهل فارس بصفة عامة فى طليعة الطائعين . .ولأهل أصبهان بينهم فضل خاص . .

ولذلك قال سعيد بن المسيب:

(لو أنى لم أكن من قريش لأحببت أن أكون من فارس. ثم أحببت أن أكون من أصبهان)

لماذا ؟!!

لأن آثار الإسلام كانت أظهر منها فى غيرها من بلاد الله ويكفى أن كان منها: سلمان . . وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهما . .

وسبب آخر وراء حب ابن المسيب هو قوله -ﷺ- :

(لو كان الدين معلقاً بالثريا لتناوله ناس من فارس من أبناء العجم. أسعد الناس بها: فارس . . وأصبهان)

وحين ينوّه الرسول -ﷺ- بهم . . فلا يصدر فى ذلك عن فخر بجنس أو لون . . وإنما هو التقدير لحسن عملهم . .

ولقد استبعد -ﷺ- من قاموس الإسلام كل ما يشم منه رائحة التعصب. . إلا أن يكون التعصب للحق وحده . .حتى لا يقع المسلم فيما يترتب على التعصب من رذائل.

قال عليه السلام:

(إنه أوحى إلىّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد . . ولا يبغى أحد على أحد)

فنهى عن نوعى الاستطالة على الحق . . وهو:

الفخر والبغى.

لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر . .

وإن كان بغير حق . . فقد بغى . .

فلا يحل لا هذا . .ولا هذا.

وإذا افتخر الرسول بأهل فارس . . وإذا تمنى قريش شريف النسب أن لو كان فارسياً . . فذلك هو الاعتزاز بالفضل الذى نعزوه إلى أهله.

لا بحسبه ونسبه

مر أبو سفيان - وهو سيد قريش- على سلمان وصهيب وبلال.

فقالوا:

والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. وأنكر عليهم بعض الصحابة قائلاً:

أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟

ولما وصل الأمر إلى رسول الله -ﷺ- خشى أن يكون الصحابة أغضبوهم . . ولو أغضبوهم لأغضبوا ربهم . .

ولم تنته الزوبعة إلا بعد أن اعتذر لهم من اعترض عليهم.

فانظر إلى فقراء المسلمين يأسفون لأن سيوف المسلمين لم تطهر الأرض من كل أعداء الدعوة الذين بقيت منهم بقية تذهب وتجئ.

وأغضب ذلك بعض الصحابة محتجاً بأن ذلك لا يليق فى حق سيد قريش. وكان الجواب من رسول الله -ﷺ- حاسماً:

وهو التقدير الكامل لهؤلاء الفقراء . الأغنياء بما قدموا للإسلام وأن من يغضبهم فكأنما أغضب الله تعالى وهكذا يحتفظ الإسلام للمسلم بمكانته العالية وإن لم يكن ذا نسب وحسب.

وكما يقول علماؤنا:

إن الفضل فى الإسلام لا لمجرد النسب وإنما هو للعمل الصالح.

(وقد وجد ممن التابعين ومن بعدهم من أبناء فارس الأحرار والموالى مثل: الحسن وابن سيرين وعكرمة مولى ابن عباس . .

وكـان فيهـم الممتـازون فـي الديـن والعلـم والعمـل حتـى أصبـح هـؤلاء الممتازون فـي ذلك أفضـل من أكثر العرب.

لأن الفضل الحقيقي في اتباع ما بعث به محمد من الإيمان والعلم:

فكل من كان فيه أمكن . . كان أفضل.

ولا عبرة لكون الإنسان عربياً ولا عجمياً . . أسود أو أبيض.

ولا بكونه قروياً أو بدوياً.

يقول سبحانه:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسول منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[1]

وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم.

وقد فسر رسول الله -ﷺ- قوله تعالى:

﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ فيالحديث الذي ورد في الصحيحين بأنهم الفرس:

(كنا جلوساً عند رسول الله -ﷺ- فنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال قائل:

من هم يا رسول الله؟!

فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً . . وفينا سلمان الفارسي . . فوضع رسول الله -ﷺ- يده على سلمان الفارسي ثم قال:

لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء)

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢.

وتأمل كيف صار غير العرب بالإسلام على قدم المساواة مع غيرهم. بل ربما تفوقوا عليهم . .

كل ذلك يؤكد حرص الإسلام على أن تظل التقوى هى المقياس . . وكل إخلال بها إخلال بالنظام الإسلامى كله.

وكل صيانة لها . . تقدير للفضلاء ليواصلوا جهادهم فى مجتمع يعترف بفضلهم . . ويفسح لهم الطريق ليأخذ كل ذى حق حقه.

دروس من الأندلس

كان "يوسف بن تاشفين" أقوى ملوك المسلمين (فى القرن الخامس الهجرى) "الحادى عشر الميلادى"

اشتهر فى بلاد المغرب وبلاد المشرق بما كان يتمتع به من عدل وشجاعة وغيرة على الإسلام والمسلمين.

كان المشرق فى زمانه يحترق بنار الحروب الصليبية . .

ولم تكن بلاد المغرب أسعد حظاً من بلاد المشرق.

فقد مزقها ملوك الأسبان . . وتقاسموا خيراتها بينهم. .

وصارت الأندلس عبرة لكل أمة جعلت غزلها من بعد قوة خيوطاً مبعثرة. . فطمع فيها الطامعون الذين وجدوها بالتفرق أمماً شتى . .

وقد أحس ملوك الأندلس المسلمون بالخطر يهدد ما تبقى من وجودهم . فراحوا يتلمسون قيادة واعية قوية تلم شملهم وتجمع كلمتهم . . فلم يجدوا إلا (يوسف بن تاشفين) ذلك القائد الملهم القادر على لم الشمل وتوحيد الصف.

وكان طبيعياً أن يدرس القائد ذلك الطلب وأن يدرس الموقف من جميع جوانبه واتضحت أمامه الحقائق التالية :

١- كان ملوك الطوائف فى الأندلس يستعين كل واحد منهم على خصمه المسلم بملك من ملوك الأسبان النصارى فإذا أراد أمير مسلم انتزاع مدينة

أو مقاطعة من أمير مسلم أعطى للأمير الأسبانى بعض أراضيه فيأخذها الأسبانى مقدماً . . ثم تكون النتيجة أن المدينة المتنازع عليها تصير غنيمة باردة فى يد الأسبانى . . ويحرم منها الأميران المسلمان المتنازعان!!

وهذا أفضل من لعبة الأمم الكبرى اليوم والتى تستغل القتال الدائر بين المسلمين . .

فتزود هذه بالسلاح . . وتلك أيضاً تزودها بالسلاح . .

ليستمر النزاع ولا يتوقف النزيف . . وتسفر النتائج فى النهاية عن انتصار القوى الكبرى العدوانية والتى تزداد قوة كلما زادت أمتنا بالتنازع ضعفاً.

٢- وجد الملك المسلم "يوسف" أن المهمة صعبة وغير مضمونة النتائج.

٣- ولكنها على أى حال فرض لازم . . ولابد من التدخل لحسم المعركة لصالح الإسلام والمسلمين . .

ولقد فكر "ابن تاشفين" ليصل إلى أفضل السبل لتحقيق النصر على أعداء الإسلام من الأسبان:

صحيح أن المسلمين كانوا كثرة كاثرة . . وأن الطاقات الإسلامية . . والعتاد الإسلامى يسد الأفق.

ولكن صحيح أيضاً أن هذه الكثرة لا قيمة لها فى غيبة الوحدة الجامعة المانعة . .

وماذا يفعل الجيش الكبير العدد إذا فقد أهم أسلحته وهو: وحدة الهدف.. ووحدة الصف!!

من أجل ذلك اشترط يوسف بن تاشفين على أمراء المسلمين أن تكون قيادة جيوشه وجيوشهم له هو. حتى تكون الجبهة الإسلامية موحدة. .

وقادرة فى نفس الوقت وبهذه الوحدة على دحر أعدائها .

وانتصر بن تاشفين وأعاد للإسلام وجهه الحقيقى وأذاق المسلمين ما يمكن أن تحققه الوحدة من أثار. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[1]

قال سائح مسلم عن ديار الأندلس:

(لقد قامت للمسلمين هناك دولة لما كانوا لله خلائف . .

ثم طردوا من هذه الديار لما أصبحوا على ثراها طوائف)

والواقع التاريخي شاهد بصدق هذا القول:

يقول بعض الباحثين تعليقاً على ما كان بين أمراء الأندلس من خلاف ضيعوا به أنفسهم ومزقوا ديارهم:

(كان إسلام ملوك الطوائف في الاندلس سياسياً:

كان إسلامهم وسيلة إلى الصراع بين أنفسهم على بقعة من الأرض ولو أضاعوا في ذلك الصراع ما يجب في الكرامة الإنسانية من الحزم والحق والعقل والشرف . . ومن الدين نفسه . . ولو استعان الملك المسلم على أخيه الملك المسلم بخصمهما غير المسلم.

أما (يوسف بن تاشفين) فكانت سياسته إسلامية:

كان يريد أن يخدم الإسلام لا أن يستخدمه . .

كان يريد أن ينتصر الحق، لا أن ينتصر هو على الحق . .

كان يريد أن يبيع عرض الدنيا في سبيل الإبقاء على مكانة الدولة الإسلامية)

ولكن أعداء الإسلام لم يسكتوا بعد ما رأوا من انتصار ابن تاشفين – لما رأوا سبب تفوقه وأنه الوحدة أجمعوا أمرهم لضربها من جديد:

يقول الباحث نفسه:

(أراد العدو نزع التوحيد من قلوب المسلمين فلم يستطع.

---

(١) آل عمران (١٠٣).

لأن من ذاق حلاوة التوحيد لا يلذ له طعم الوثنية.

ومن أدرك قيمة الوحدانية لا يعود إلى الشرك أبداً وراغ العدو روغة فأتى المسلمين من جانب آخر ففرق أهواءهم فى السياسة والتجارة وفى الحياة الاجتماعية.

فإذا المسلمون موحدون فى الدين مشركون فى الرأى:

وإذا هم موحدون فى عبادة ربهم وثنيون فى تفرقهم بين زعمائهم.

وإذا أولئك الزعماء يتخاصمون ويتنازعون كأشد ما كان العرب فى الجاهلية حتى أذلوا شعوبهم. ومزقوا وحدة أمتهم)

علماؤنا والوحدة الإسلامية

اختلف علماؤنا فى الفروع . . ولكنه الاختلاف الذى لا يفسد قضية الود بينهم . .

بل إن أتباع المذهب الواحد قد يختلفون فيما بينهم لكن ذلك الاختلاف لم يلههم عن حقيقة الوحدة التى ينبغى أن تجمعهم حتى لا يفرقوا صفوف الأمة . . وما زال علماؤنا منارات هدى . . نتعلم منهم ونأخذ عنهم فن الاختلاف الذى لا يعرف التعصب. ولنتعلم من أعدائنا أيضاً:

إننا نواجه أعداء بينهم من العداوة الشئ الكبير . . ولكنهم متفقون علينا.

فهل يعقل أن يتفق اللصوص . . ويختلف أصحاب البيت تاركين لهؤلاء اللصوص سرقة متاعه؟!!

إن الدول التى غضبت على اليهود وأخرجتهم من ديارهم تقف اليوم فى صف اليهود فى المنتديات العامة . .

فتصوت لصالحها أو على الأقل تمتنع عن التصويت . .

ثم لنتأمل ما يفعله اليهود اليوم:

إنهم يستظهرون علينا باليهود فى كل مكان ولا يقولون هذا اليهودى أمريكى وهذا فرنسى لا يجوز لنا الاستعانة به . .

إنهم يتجاوزن خطوط القوميات باسم الدين . . ولقد رأينا بأعيننا أنهم تغلبوا علينا لأننا مزقنا وحدتنا باسم القوميات.

وحرام على أمة هداها الله إلى دين التوحيد . . والوحدة حرام عليها أن تعتدى على التوحيد . . بعبادة الأشخاص . . وأن تقضى على الوحدة بعبادة الأهواء.

دروس فى السماحة

من بيت النبوة

حاجة الأمة الإسلامية إلى التسامح والأخوة والورع ملحة فى زمان يكيد لها أعداؤها كيداً بمحاولات التفريق بينها . . وتمزيق وحدتها.

وفى بيت النبوة شواهد تؤكد رحابة الصدر. وكرم الطبع، والحفاظ على مال المسلمين . . ودمائهم أيضاً . . من كل ما يوحد الصف. ويذهب بالضغينة من الصدور. ويجعل الولاء كله للحق لا للأشخاص . .وإذا كنا جميعاً فى كل بقاع الدنيا – نحب آل البيت . . فإن هذا الحب لما قدموه من تضحيات وما تخذوه من مواقف صان الله بها دماء الأمة حتى لا تراق هدراً. وأموالها حتى لا تنفق فى الباطل . . وأخوتها حتى لا ينال منها أعداؤها.

نماذج وصور

لم يكن على كرم الله وجهه يعطى ولديه الحسن والحسين من بيت المال إلا ما كان حقاً لهما.

وكان ينحى العواطف جانباً ليكون الولاء للحق وحده . . ويروى فى ذلك أن شقيقه "عقيلاً" ابن أبى طالب . . طلب من بيت المال قدراً لا حق له فيه.

فلم يستجب له أخوه الإمام على قائلاً:

يا أخى: ليس لك فى هذا المال غير ما أعطيتك، ولكن اصبر حتى يجئ مالى فأعطيك منه ما تريد.

فلم يرض "عقيل" هذا الرد. وذهب إلى معاوية ولم يؤثر ذلك فى موقف اقتنع به الإمام لمطابقته لشرع الله تعالى.

وبقى الموقف مثلاً حياً. وقدوة طيبة تؤكد أن المال مال الله وليس من حق الحاكم مهما كان أن ينفقه فى غير موضعه.

وقد استمر الإمام علىّ وفيا لمبدئه فى الدفاع عن الحق والمحافظة على دماء المسلمين -كما حافظ على أموالهم- حتى فى أحرج اللحظات فى حياته . . ولم يحمله الغضب. ولم تدفعه شهوة الانتقام إلى الاندفاع وبعثرة المال وقتل الرجال.

ونقرأ فى ذلك ما روى:

"أن علياً رضى الله عنه لما طعنته اليد الغادرة وتأكد أنه ميت لا محالة. أدرك فى هذه اللحظة العصيبة ما يمكن أن يترتب عليها من دمار وفوضى. فوصّى المحيطين به من أهله قائلاً:

النفس بالنفس . .

إن هلكت فاقتلوا قاتلى كما قتلنى. وإن أنا بقيت رأيت رأيى فيه.

يا بنى عبد المطلب: لا تتجمعوا من كل صوب -ناحية- تقولون: قتل أمير المؤمنين . . ألا لا يقتلن بى إلا قاتلى.

إنه الإمام الكريم الذى قدم للإسلام حياته . .

وكان منذ بواكير حياته الأولى مثلاً يحتذى فى الشجاعة . . والتواضع. والبذل . . إلى غير ذلك مما يشهد به الأعداء قبل الأصدقاء . .

ومع ذلك تطعنه يد غادرة . .

وتطعنه ظلماً وعدواناً . .

وكان لابد من القصاص.

ولو أنه كرم الله وجهه ترك للانفعال أن يقول كلمته لخضبت الأرض بدماء الأبرياء . . ولكنه لم يفعل. مسلماً الأمر لله تعالى . .

أما نحن اليوم فمن أجل كلمة . . أو خلاف على مسائل فرعية نحول الحياة إلى أنهار من الدم . . لمجرد صيحة من زعيم يقدم أمته قرباناً للنار . . وليبقى هو فوق جماجم الضحايا بلا أمة . . فقد أفنى أمته . .

وبلا ذكرى إلا ذكريات الخراب والدمار . .

إن حبنا لآل البيت يفرض علينا أن نتعلم على أيديهم دروس السماحة . . والورع . . والإخلاص . .

وما تزال مآثر أهل البيت تعطر الدنيا في باب الإخلاص والسماحة . . فقد عرفنا كيف ضن عليّ كرم الله وجهه بمال المسلمين على أخيه ابن أمه وأبيه. . ولم يغير موقفه حين فارقه أخوه إلى معاوية . .

فليغضب أخوه . . في سبيل رضا الله تعالى . .

وليذهب حيث شاء . . لكن ليبقى الحق ناصعاً . . أبياً . . لا يخضع لهوى شخص مهما كان موقعه . .ومهما كان بلاؤه . .

وإلى جانب هذا الولاء للحق ظلت السماحة تشد من أزره في أكثر من موقف.

ومن دروس السماحة ورحابة الأفق ما روى أن الحسن رضى الله عنه -وفي خلافة عثمان- لما قاد سعيد بن العاص جيشاً إلى طبرستان . . لم يجد الحسين غضاضة في أن يكون تحت إمرة قائد أموى وفي عهد خليفة أموى.

ذلك بأن المبادئ الإسلامية التي هي ميراثنا جميعاً أمانة في أيدينا . . ونحن مكلفون بتنحية العواطف الشخصية جانباً . . لينتصر الحق.

وإلا فلو سمحنا للعواطف أن تجمح بنا ذات اليمين وذات الشمال . . فسوف نخرب بيوتنا بأيدينا . . ويظل الحق حلماً يراود الخيال . . وإنه لفي حاجة إلى رجال . .

رجال من هذا الطراز العالى . . يحملون قلوباً واسعة واسعة لا تعرف التعصب . .

لقد كان الحسين يصلى مأموماً والحسين كذلك . . وراء الخليفة الأموى مروان بن الحكم . .

كما روى ابن الأثير.

وبهذه الوحدة الجامعة فوتوا على الأعداء أغراضهم . . الرامية إلى توسيع شقة الخلاف حتى فى باب العبادات.

لقد انتصرت أمتنا على اليهود قديماً لأنها كانت أمة واحدة . .

لقد كان أباؤنا حراصاً على الموت فوهبت لهم الحياة . . وتحقق بهم النصر . .

ولقد خذل الله اليهود بالأيدى المؤمنة وكف بأسهم . .

لأن اليهود كانوا أحرص الناس على حياة . . فضاعت منهم الحياة . .

لقد انتصر الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[1]

على الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾[2]

فإذا توحدوا اليهود اليوم . .وتفرق المسلمون فسوف يكون النصر حليف المتوحدين سنة منه تعالى لا تتخلف . .

فمن استجمع أسباب النصر نصره الله . . ومن هان واستكان باء بالخسران . .

لقد كان لإيران والعراق معاً نصيبهما الموفور فى ازدهار الحضارة الإسلامية لما كانوا يقاتلون من خندق واحد. . عدوا واحداً مشتركاً. .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٢) سورة الحشر الآية ١٤.

فماذا حدث بعد ذلك؟

نزغهم من الشيطان نزغ فتفرقت الكلمة . . وتحكمت الأهواء فكان ما كان . .

وإذا كنا نتشدق اليوم بالإسلام . . ونتباهى بإقامة شعائره والحفاظ على عهوده . . فإن هذه العبادة سوف تكون ضائعة الأثر فى حياتنا . . حتى نمدها بإكسير الحياة وروح الحياة . . وهو:

إصلاح ذات البين . . والعودة إلى الوحدة الضائعة . .وإلا فلا قيمة للعبادة فى غيبة عنصرها الفعال . . يقول -ﷺ- :

(ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟! قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين. فإن فساد ذات البين هى الحالقة)[1].

التى تحلق الدين . . ألا إن شعب العراق . . وشعب إيران معاً مطالبان بإحياء مشاعر الأخوة التى سوف تكون أرضاً جديدة . . لتعايش سلمى جديد . . نغيظ به أعداءنا.

من سمات المجتمع المسلم

المساواة

من القواعد الأصيلة فى شريعة الإسلام ما قرره -ﷺ-:

(لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)[2]

فلا قيمة للحسب والنسب فى المجتمع الإسلامى إذا فقد الحسيب والنسيب قيمة الأدب.

والناس متساوون كأسنان المشط . . وإذا كان لابد من فضل لأحد على أحد فبالتقوى والعمل الصالح:

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٦).

(٢) الحديث رواه الإمام الترمذى فى صفة القيامة (٢٥٠٩) وأبو داود فى الأدب (٤٩١٩).

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]

ولقد دارت تكاليف الإسلام كلها على قاعدة المساواة . .ولو ادعى وزير على أدنى فرد في الدولة أنه أخذ منه ديناراً، فإن الدعوى لا تثبت إلا بشهادة عادلة.

ولا يعطيه المنصب قوة يغتصب بها ما يدعيه اغتصاباً . .أو كما قال علماؤنا.

وقد كان الشريف والضعيف . .والواجد والفاقد . . يقفون معاً أمام القاضى على سواء . .

والقاضى المحكوم بقواعد الإسلام يسوى بين هؤلاء المتخاصمين حتى فى النظرة . . وهى مما يتساهل فيه الناس عادة . .

ولو حدث وحاول القاضى تكريم الشريف أثناء نظر الدعوى بإجلاسه دون خصمه مثلاً . . فإن الشريف يرفض هذا التحيز مؤكداً ولاءه للمساواة التى هى معلم بارز من معالم الإسلام.

لقد كان الحق هو الفيصل الوحيد بين الناس:

فكل واحد حاكم من جهة . . ومحكوم من جهة أخرى. فهو سائل بحكم منصبه . . ولكنه مسئول أمام الله وأمام الشعب إذا هو أساء استغلال وظيفته .

من ثمرات المساواة

ولقد كان الإحساس بالمساواة سائداً وقوياً فى الصدر الأول فى الإسلام.

وكان من نتائجه العملية ما يلى:

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

١- أن الضعيف التى لم تكن له عشيرة تحميه . . كان يذهب إلى ساحة العدالة وهو مطمئن واثق أن حقه سيعود إليه . . فلم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً.

٢- كما أن الشريف لم يطمع فى أكل حقوق الناس لأن للحق حراسه المتيقظين. الساهرين على الحقوق حتى لا تغتصب.

وإذا أحس الضعيف والقوى معاً بهيمنة العدل. لزم كل منهما جادة الصواب . . وأدى ما عليه عن رضا . . ولم يقصر فى حق دولة . .

لا تضن عليه بجهد . ولا تتركه للظروف المتقلبة.

ولقد رأينا كيف عمق -ﷺ- الإحساس بالمساواة بين صفوف الأمة حتى يضمن ولاءها للحق الذى يدعوها إليه.

وكان هو -ﷺ- مثالاً يحتذى عنه عندما ما كان يسوى الصفوف وأحس جندى مسلم بأن الرسول أوجعه وطلب القصاص فأجابه -ﷺ- إليه.

وكان هذا الموقف أبلغ من ألف خطبة تأمر الناس بالمساواة . .

وذهب الجندى إلى المعركة واهباً حياته لدين لا يمكن حتى الرسول -ﷺ- من الفرار من القصاص.

المساواة عندنا وعندهم

قيمة المساواة فى الإسلام هى التى جعلت المسلمين سواسية كأسنان المشط . . ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى . .

واليوم نحدثكم عن المساواة فى الأمم الأخرى وكيف كانت شعارات جوفاء لا مضمون لها. ولا أثر لها فى دنيا الناس:

لقد ارتقى الشعور الإنسانى أخيراً. وتحت ضغط المظالم التى أرهقت الشعوب تولدت فكرة الحقوق الإنسانية.

ولكن أين اعتبار هذه الحقوق إلى جانب ما قرره الإسلام بشأنها؟!

إن الفرق واسع جداً:

فالحقوق فى منطق المدنية الحديثة أمور اعتبارية . .

فمعنى أن ما كان هناك حقاً بالأمس . يمكن الغاؤه اليوم . . وبجرة قلم.

ثم إن الحق هناك فى الدول الأخرى التى لا تدين بالإسلام . .لا يكون حقاً إذ لم يعترف به دستور الدولة.

فإذا لم يعترف فلا وجود له. وإن كان فى ذاته حقاً.

إنه عنصرى . . قومى . . أنانى:

ففى فرنسا مثلاً . . عندما ألحقوا ميثاق الحقوق الإنسانية بدستور ١٩٧١ قالوا:

رغم أن المستعمرات والأراضى التى احتلتها فرنسا فى آسيا وافريقيا هى أجزاء من أراضيها. . إلا أن الدستور لا يطبق عليها!!

فميثاق حقوق الإنسان . . للشعب الفرنسى فقط!

ومن يطالب به من هذه المستعمرات يضرب . . وبوحشية لا تعرف للإنسانية معنى .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣ لما قررت الأمم المتحدة:

أن التمييز العنصرى جريمة، عارض هذا القرار أمريكا وانجلترا والبرتغال وأفريقيا الجنوبية.

وفى روسيا الشيوعية . . طلع فجرها الأحمر من وراء جبل عال من جثث البشر التى بلغ عددها عشرين مليوناً!

إن الحقوق فى هذه الدول لا تنبع من الفطرة الصافية . .

ولكنها راجعة إلى الهوى المتقلب . . والعنصرية البغضية . .

هى جزء من القانون العام للدولة . .

من أجل ذلك تغير وتبدل . . كلما أراد الهوى المتقلب ذلك. دون اعتبار لإنسانية الإنسان.

وليس هناك حل أشمل ولا أكمل إلا فى ضوء الإسلام الذى جعل لمساواة حقاً مقرراً ثابتاً مفروغاً منه . . إلى الحد الذى يتقدم الفرد العادى ليأخذ حقه من رئيس الدولة وعلانية وعن رضا وقبول.

والإنسانية مطالبة اليوم أن نجرب مبادئ الإسلام. ولو مرة واحدة.

فإن هى فعلت فسوف تتخلص من عذابها . . وتضع أقدامها فى نفس الوقت على الصراط المستقيم الواصل بها إلى الأمن والقرار.

ولا نكلف الإنسانية بهذا الالتزام شططاً . . والمحاولة سهلة متاحة . . والتجربة ميسرة.

وعلى الإنسانية أن ترحم نفسها . . إذا كانت تبحث عن هذه الراحة فعلاً.

وما زلت أذكر هذه الصور:

صورة رئيس وزراء دولة أجنبية يقف فى الطابور مع بنى وطنه ينتظر دوره فى الحصول على حصته من التموين اليومى.

ونقل الصورة إلينا كاتب عربى مسلم . ثم علق عليها تعليقاً ينوه بالمساواة الحقيقية فى الدول الأخرى والتى تقف برئيس الوزراء مع العامل فى مكتبه ضمن الطابور الطويل . . ولم يشفع له منصبه فى استثنائه من الدور.

والمشهد ولاشك ملفت للنظر . . وهو جدير بالإعجاب . لكن المعلق المسلم حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء . . فهذا المسئول الكبير الذى يرفض أن يحصل على "بيضة" قبل خادمه فى الديوان احتراماً لحقه . . هو هو بعينه الذى يتغدى بدولة ويتعشى بأخرى!!

إنه لا يفرط فى مثل الشعرة إذا تعلق الأمر بواحد من قومه . . أما مع الغرباء فاحتلال دولة أمر مشروع . . وامتصاص دماء أبنائها ونهب جيرانها أمر مفروغ منه وحق مكتسب له!!

إذن فالمحافظة على الحقوق هناك أمر اعتبارى كما قلنا من قبل . . وليست احتراماً للمساواة من حيث هى فضيلة يجب أن تطبق فى كل زمان وكل مكان ومع كل إنسان.

وتأمل معى فحوى برقية الشكر التى أرسلها الرئيس الأمريكى إلى العلماء السوفييت الذين شاركوا علماء أمريكا فى إنقاذ حوتين أمريكيين من الأنواع النادرة والتى حرم صيدها منذ ثلاثين عاماً فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية

تأمل البرقية . . ثم حاول أن تلقى نظرة على دم الإسلام المسلم والذى يراق على أرض أفغانستان . . وفلسطين ولبنان . . ثم لا يتحرك أحد لوقف هذه النزيف . .

وهكذا يصبح الحوت فى البحر أدخل فى الأهمية من الإنسان.

وتصبح الحقوق المزعومة حبراً على ورق.

ويتأكد لنا كيف يحاول الأجانب أن يخدعونا حين يؤكدون لنا أنهم حماة الحرية وحراس الحقوق . . فى الوقت الذى يتساقط البشر من النساء والأطفال كأوراق الخريف . . بينما حيتان البحر تجد من يخف لإنقاذها والمحافظة عليها!!

ومن سخرية الأقدار أنه فى الوقت الذى تعلن فيه دولة كبرى عن سعادتها لإنقاذ الحيوان . . تراها فى نفس الوقت تقف ضد قرار إدانة المعتدى الغاصب. . والذى يهدم بنيان الله فى الأرض . . بلا رادع من قوة ولا وازع من ضمير.

وأين هذا من الإسلام الذى قرر إحترام الحقوق .. حقوق الإنسان مهما كانت ديانته . . بحيث لا يحمل الغضب على إهدارها.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا﴾[١]

---

(١) سورة المائدة الآية ٨.

أى أنـه مهمـا كنتـم غـاضبين ثـائرين مـن ظلـم قـوم . .

فحذار أن يورطكـم الغضـب فـى ظلمهـم . .

وهذا هو الفارق الهـائل:

بين شـريعة الخـالق . .

وقوانيـن المخلـوق.

العدل فـى حياة الإمـام علـىّ رضـى اللـه عنـه

بـالعدل قـامت السـماوات والأرض – ومعنـى ذلـك :

أنـه لـو كـان ركـن مـن الأركـان الأربعـة فـى العـالم زائـداً علـى الآخـر. أو ناقصاً عنه لم يكن العـالم منتظمـاً.

وهكذا الدولـة:

إذا اهتزت فيهـا قيمـة العدل . .فـلا مستقبل لهـا ولـو كـانت مؤمنــة.

وإن اللـه تعـالى لينصـر الدولـة الكـافرة متـى كـانت عادلـة . .

بينمـا يخذل الدولـة المسلمة لـو كـانت ظالمــة . .

وتلك سنة اللـه تعـالى فـى خلقـه.

وقد وعـى سـلفنا الصـالح تلـك السـنة الإلهيـة التـى لا تختلـف أبـداً. فكـانوا صورة للعـدل فـى أجلـى صـوره.

وفـى مقدمـة هؤلاء: الإمـام علـىّ رضـى اللـه عنـه.

لقد خاطبـه القـاضى يومـاً بكنيتـه فقـال لـه: يـا أبـا الحسـن.

بينمـا لـم يخـاطب خصيمـه كذلـك . . مـع أنـه كـان يهوديـاً!

ومعروف أن الإنسـان وهـو فـى قفـص الاتهـام . . يحـاول جـاهداً أن ينتقـى عباراتـه حتـى لا يغضـب القـاضى.

ويتحاشـى كـل مـا مـن شـأنه إثارتـه ليكسـب الجولـة.

ولكـن علياً رضـى اللـه تعـاللى عنــه يعـترض علـى القـاضى الـذى لـم يعـدل حتـى فـى الخطـاب . .

لأن ذلك من شأنه التأثير على سير التحقيق:

سيحس المظلوم بالوحشة. ويعتريه الشعور بالهوان.

يصير فى النهاية يأساً من تحقق العدالة . . وما يترتب على ذلك من آثار ضارة بانتمائه لوطنه . .

وحتى إذا خسر الإمام على عطف القاضى فقد أرضى ضميره حين كشف الحق . . فليبق العدل مرفوع الراية . . ولو خسر الإنسان كل ما يملك.

ولقد كان للإمام على أسلوبه الإيجابى فى التمكين لفضيلة العدل . .

فلم يكن يكفيه أن فضيلة العدل راسخة فى قلبه. متمكنه منه . . وإنما . . ولتتم الصورة جمالاً وكمالاً. تراه وقد أخذ على عاتقه حمل الناس على العدل حملاً.

لقد كان يسير فى الأسواق. ثم ينادى بأعلى صوته قائلاً للتجار:

اتقوا الله. وأوفوا الكيل والميزان.

ويسمع الناس هذا النداء المخذر . . ثم ينتظرون فى نفس الوقت إلى صاحب النداء ليروه على أوفى ما يكون العدل . . الذى يطبقه على نفسه حرفياً قبل أن يأمر التاجر به . .

ولاشك أن ذلك من دواعى الاستجابة . .

ومن غريب ما يروى عنه رضى الله عنه. أنه كان إذا أراد أن يشترى شيئاً . . تحرى سوقاً بعيدة . .ثم قصد تاجراً لا يعرف أنه علىّ أمير المؤمنين.

حتى تتم عملية البيع بلا محاباة . . وإلا فلو علم البائع أنه أمير المؤمنين لزاده . . وهو ما يرفضه الخليفة العابد العادل.

وما أكثر الذين يستغلون المناصب فى الإثراء على حسابها . .

وإذا كانوا يكسبون مالاً . . فإنهم يخسرون ما هو اغلى من المال . وهو.. الشرف . .

وسوف يموتون غداً . . ويخلفون من ورائهم ذكريات مرة . . بينما تبقى صورة العادلين فى قلوب الناس عمراً ثانياً وذكراً طيباً.

العـــدل . .

هذه الثروة الهائلة

بين الحين والآخر كان -ﷺ- يصحح بعض المصطلحات التى قد يسئ البعض فهمها. لينطق المسلم على بصيرة من أمره.

ومن هذه الأمور: الإفلاس . .

فالمعنى المتبادر إلى الذهن أن المفلس هو الفقير الذى لا يملك درهما ولا ديناراً . .

وأراد -ﷺ- أن يجلى للصحابة معنى الإفلاس الحقيقى. . فسألهم عن المفلس . . فأجابوه بما هو مألوف لديهم . . وكانت فرصة وضح فيها من هو المفلس الحقيق .

قال -ﷺ- :

(أتدرون من المفلس؟!

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال:

إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة. ويأتى وقد شتم هذا. وقذف هذا. وأكل مال هذا. وسفك دم هذا. وضرب هذا.

فيعطى هذا من حسناته. وهذا من سيئاته.

فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه. أخذ من خطاياهم فطرحت عليه. ثم طرح فى النار)[1]

فأنت ترى الرسول الكريم هنا يكشف عن المفلس حقاً . .

---

(١) الحديث رواه مسلم.

وهو الذى كانت حياته ظلماً للناس فى كل موقع . .

لا يخطر على باله معنى العدل وما يترتب عليه من قرار وأمن.

ثم انطلق . . كالمسعور يؤذى الناس فى كل اتجاه:

فهو رجل راكع ساجد . .صائم . . متصدق . .

ومع هذه الثروة الضخمة التى يملكها فهو مفلس بمقياس الإسلام.

لأنه قطع كل الحبال الجامعة بينه وبين بنى قومه:

فهو دائم التجريح للآخرين: سباً . . وقذفاً فى العرض . . وأكلاً لأموال الناس بالباطل . . بل سفكاً لدماء الأبرياء . . والذى يحكم عليه بضم حسناته إلى حساب خصومه . . فإن وفت بحقوقهم . . فبها . .

وإلا أخذ من سيئاتهم فتلقى عليه . . ثم يلقى معها فى النار . . جزاء وفاقاً للظلم الذى أدار عليه حياته . . وهذا هو المفلس الحقيقى . .

وأين هذا من المسلم الذى جعل من العدل شرعة له ومنهاجاً؟

إن المسلم حقاً هو الذى يعدل فى علاقاته بالآخرين . . فيكسب ودهم. ويظفر بمحبتهم . .

ولئن حرم من المال فقد أعطى ما هو أغلى من المال . .

وهذا هو محمد بن كعب القرظى يصف لنا هذا المسلم العادل فيقول فى نصيحة له وجهها إلى بعض الأمراء:

كن لصغير الناس أباً.

ولكبيرهم ابناً.

وللمثل أخاً.

وللنساء كذلك.

وعاقب الناس على قدر ذنوبهم.

ولا تضرب فى غضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين)

ولا شك أن مسلماً هذا شأنه:

يعامل الآخرين على هذا النحو الفريد . . لهو أغنى الناس بمحبة الناس جميعاً . . ولاشك أيضاً أن لهذه المحبة ثمرتها التى تجعل منه مواطناً صالحاً موفقاً فى عمله . . مرضياً عنه - يسهل له كل ما يزاول من عمل.

الإمام العادل

يقول -ﷺ-:

ثلاث لاترد دعوتهم:

الصائم حتى يفطر.

والإمام العادل.

ودعوة المظلوم: يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء. ويقول الرب:

وعزتى. لأنصرنك ولو بعد حين) [1]

والحديث الشريف يرفع الستار عن ثلاثة فازوا بمعية الحق سبحانه وتعالى. .

الصائم . .

والإمام العادل . . الذى يضبط بعدله ما اعوج من أخلاق الناس . .

ودعوة المظلوم التى تفتح لها أبواب السماء . . ومهما تأخرت إجابتها احياناً - لحكمة إليهة- فإنها واصلة إلى الحق تعالى. حتماً . .

ولا شك أن الإمام العادل يمثل أهم عنصر فى سعادة الأمة . .

وإن يوماً واحداً يقيم فيه ميزان الله فى الأرض. لهو خير وبركة على الأمة من عبادة آلاف السنين فى مجتمع مستكين لا يستطيع أحد فيه أن يقول للظالم: يا ظالم . .

---

(١) رواه احمد والترمذى وحسنه.

وقد تسرف أمة فى الحديث عن العدل فى خطبها ومن فوق منابر التعليم فيها . . لكن شيوع الظلم لا يجعل لهذه المواعظ قيمة . . مالم يرزقها الله تعالى بالحاكم العادل الذى يقف إلى جانب الضعيف حتى يقوى . . ويواجه الظالم بالردع حتى يعدل.

وقد كان -ﷺ- مثلاً حياً فى هذا الباب:

قبيل غزوة بدر . . شرع -ﷺ- ينظم الصفوف ويسويها بسهم فى يده.

وكان فى الصفوف فتى هو "سواد" الذى قال للرسول -ﷺ-:

لقد اوجعتنى بسهمك يا رسول . . وطالب بالقصاص!

فما كان منه -ﷺ- إلا أن كشف عن بطنه . . وقال للجندى "سواد"

هلم . . فاقتص منِّى . .

وحدثت المفاجأة:

لقد أسرع الجندى المسلم وانكب على بطن رسول الله -ﷺ- يقبلها بشغف . .

فلما سأله الرسول عن سر ما حدث قال:

إننى مقدم على معركة حياة أو موت . . وربما فزت بالشهادة . . فاخترعت هذه الحيلة ليكون أخر عهدى بالدنيا أن يمس جلدى جلدك الشريف!!

إنها صورة العدل فى أسمى معانيه . . ومثل أيضاً لما يحققه العدل فى دنيا الناس:

فعندما يذهب هذا الجندى إلى المعركة لاشك أنه سيبذل روحه رخيصة فى سبيل الله تعالى . . وفى سبيل أمة حفظت له حقه فصانت كرامته . .

وتحت قيادة قائده الذى لم تمنحه قيادته استثناء يعفيه من المساءلة . .

إن الحاكم والمحكوم هنا معاً خاضعان لميزان العدل . .

الذى تعتدل به مرافق الأمة . . ويتحقق النصر المأمول . . وتتلفت الدنيا لترى أمة متحضرة قادرة بهذا التواصى بالعدل على أن تأخذ مكانها تحت الشمس ظاهرة قوية . .

العدل

فطرة المسلم

الدول الأجنبية التى لا تدين بالإسلام . . تتحدث عن العدل وأهميته . .

وقد ترى فى حايتها اليومية صوراً من العدل تغرى الإنسان بالإعجاب بها.

وعند التأمل الواعى سوف يظهر لنا أن صور العدل هذه مصبوغة باللون القومى . .

فللقوم هناك ميزان فيما يتعلق بأبناء الوطن لا تطيش كفته . . فيتحرون العدل . . ويتلافون الظلم . .

أما إذا تعلق الأمر بالأمم المستضعفة . . فإن الأمر يختلف . . وربما سولت العصبية لأهلها إباحة دماء الغرباء وأموالهم . . بل هذا هو الموقف الذى حدث فعلاً . .

أما فى الإسلام . .

فالميزان واحد . . لأن رابطة الإنسانية مانعة من الظلم وإن اختلف الدين . .

إلى جانب أن فطرة المسلم ذاتها نظيفة سوية.

ترفض الظلم بطبيعتها . . وتأباه . . ولو حاول المسلم الحقيقى أن يظلم. ما طاوعته نفسه. والشواهد الكثيرة تؤكد أصالة فطرة العدل فى قلوب المسلمين:

كان مسلم بن قتيبة والياً.

وذات يوم. وفد عليه أعرابى. يشكو من غريم له. وكان ضعيف البصر.

ووقف الأعرابى وهو متكئ على سيفه كعادة العرب حينئذ. ثم شرع يسرد شكواه. والغريب أن سيف الشاكى كان مستقراً على قدم الوالى . . فجرحه. وسال الدم منه.

ولما فرغ الرجل من عرض قضيته. طلب الوالى ما يجفف به دمه.

فقيل له:

أفلا نبهت الرجل فقال:

خفت أن أذكره بضعف بصره.

فقيل له: أفلا نحيت قدمك بعيداً عن السيف؟

فقال الوالى: أخاف أن أقطع علي الرجل كلامه!!

لقد توهجت حقيقة العدل فى قلب الوالى القادر على الانتقام لنفسه.

ولم تكن مهمته أن يسكت فقط . .

وإنما قرر ألا يحرج الرجل بسبب ضعف بصره فيكون قد جرح كرامته..

ولتجرح قدم الوالى . . لكن كرامة الإنسان . .

ينبغى أن تصان.

وليس هذا فقط.

فقد صمم الوالى ألا يبعد قدمه. وتحمل الألم. مع الدم النازف حتى يكمل الشاكى سرد قضيته . .

وإلا فلو أنه فاجأه بما فعله سيفه بقدمه لكان للمفاجأة رد فعل ينعكس على الشاكى خوفاً . وأسفاً سيترتب عليهما فشله فى عرض قضيته!!

إن الإسلام ليثبت من خلال رجاله الذين يقدسون العدل . . يثبت أن الظلم ليس من شيم النفوس كما قال الشاعر . . ولكن الفطرة المؤمنة مولعة بالعدل . حريصة على تثبيت أركانه. ولا يمكن لكرسى الولاية أن تثبت أركانه إلا بالعدل . . العدل كما جاء به الإسلام.

العدل

أساس الملك

يقول الحق سبحانه:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1]

ويقول عز من قائل:

﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا . . .﴾[2]

اعدلوا هو أقرب للتقوى)

فى الآية الكريمة يأمر سبحانه بالعدل الذى هو حجر الزاوية فى بناء الحضارة الإنسانية. .

وفى الآية الثانية:

يستبعد العواطف الإنسانية المتقلبة حتى لا تتحكم فى المواقف وتلون الأحكام باللون الشخصى والانفعال الذاتى . .

فقد نكره قوماً لظلمهم وبغيهم . .

لكن هذه الكراهة شئ . . ومعاملتهم بالعدل شئ آخر . .

فقاعدة العدل ثابتة فيه . . أما الأهواء النفسية فمتقلبة . . لا تصلح أساساً لحكم . . ولو اتبع الحق أهواء البشر لفسدت السموات والأرض ومن فيهن.

وفى التمكين لمبدأ العدل نرى السنة المطهرة تنوه بالإمام العادل وكيف سيظله الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله مع مجموعة من المصطفين الأخيار من البشر ومنهم:

الإمام العادل . .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

(٢) سورة المائدة الآية ٨.

وشـاب نشـأ فـى عبـادة اللـه تعــالى . .

إن يومـاً يجلس فيـه الإمـام فيقضـى بـالعدل لهــو خـير للأمــة مـن أن يمطــروا عشـرات السـنين ..

ذلك بأن العدل تثبيت للعلاقات البشرية وتقوية لهـا.

وإن أمة تقوى علاقات أبنائها لهى جديرة بالبقاء.

ومــا قميــة الرخــاء الاقتصــادى إذا ضــرب الظلــم قلــوب النــاس فغــابت العواطـف الكريمـة. وهـى الجامعـة المانعـة؟

من أجل ذلك نـوه الحديث الشــريف بالإمـام العـادل . . الـذى يسـعد وتسـعد بـه أمتـه بمعيتـه سبحانه وتعالى وتـأييده . .

وذلـك قولــه -ﷺ- :

(ثلاثـة لا تـرد دعوتهــم:

الصـائم حتـى يفطـر.

والإمـام العــادل.

ودعـوة المظلـوم. يرفعهــا اللــه فـوق الغمــام. ويفتـح لهــا أبــواب السـماء. ويقول الـرب:

وعزتـى لأنصرنـك ولـو بعـد حيــن)[1]

فـانظر كيف حسنت صلـة الإمـام باللـه . . فـإذا دعـا أجـاب اللـه دعـاءه فكـان خيراً وبركـة علـى أمتـه.

وينبغـى أن نعـرف اتسـاع معنـى العدل حتى يشـمل أيضـاً عــالم الحيـوان:

وفـى ذلـك يقـول -ﷺ- :

(لتؤدن الحقوق إلـى أهلهــا يـوم القيامــة حتـى يقـاد للشــاة الجلجـاء – التى لا قـرن لهـا– من الشاة القرنـاء – التـى لها قرن.)[2]

---

(١) رواه أحمد والترمذى.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم فى البر والصلة (٦٧٤٥).

وهكذا العدل فى الإسلام :

١- أصيل: غير قابل للتساهل والتجاوز.

٢- يصل العادل بربه فيبارك فى عمره.

٣- ثم إنه واسع واسع . . يأخذ الحيوان نصيبه منه . .

ومن هنا كان أساس الملك . . ولا ملك هناك فى غيابه . .

من ثمرات العدل

عندما يستولى علينا الخوف . . ماذا يحدث؟

تزداد نسبة القلق . . والتمزق . . ويتضاعف الإحساس بالضياع . .

وكل ذلك يشكل قيوداً على عواطفنا . . وأثقالاً على أكتافنا . .

وقد نتحرك . . ونندفع . .لكننا نثبت كروية الأرض حين نعود إلى نفس النقطة التى بدأت عندها حركتنا . .

ذلك بأننا مربوطون بعقدة الخوف . . بخيوط من هذا التمزق . . وهذا القلق فى داخل أنفسنا . .

وصحيح أننا حينئذ نحس بحرية الحركة . . لكننا سرعان ما تشعر بالقيود تحز فى أعماقنا!

ولأن الخوف والقلق على هذا النحو الذى يشل فينا قدراتنا . .فإن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان . . لنحظى فى ظلهما بالأمن والقرار . .

إن الخائفين . . لا يعملون . .

وإذا عملوا . . لا يجيدون . .

من أجل ذلك توالت توجيهات الإسلام آمرة بالعدل . . ناهية عن الظلم.

مبشرة العادلين بالسعادة . .

منذرة الظالمين بسوء المصير . .

وفيما يتعلق بالبشارة نقرأ قوله -ﷺ-:

(إن المقسطين -أى العادلين- عند الله على منابر عن يمين الرحمن. وأهلهم. وما وُلّوا)[1]

فأهل العدل فى معية الله تعالى تشريفاً لهم وتكريماً . .

وهم عن يمينه سبحانه وتعالى . . زيادة فى هذا التشريف . .

ولا يستحقون هذا الشرف العظيم إلا إذا صار العدل فى حياتهم صفة لازمة لا تتخلف . . فهم يتسمون بالعدل فى كل موقع:

إذا كانوا فى موقع المسئولية . .

أو فى البيت . .

ومع كل قضية يوكل إليهم أمر الحكم فيها . . وهم بهذا العدل الدائم أصحاب الجنة مع إخوة لهم ممن أسعدوا الحياة حولهم . .

عن عياض قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول :

أهل الجنة ثلاثة:

ذو سلطان مقسط - عادل- موفق.

ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى.

ومسلم عفيف. متعفف. ذو عيال)[2]

لا نتحدث هنا عن حق المسلم فى الاحترام . .فذلك مبدأ مفهوم ومقرر لا جدال فيه . .

ولكنا نتحدث عن حق الإنسان . . الأجنبى . . والمخالف فى الدين . . كيف احتفظ له الإسلام بحقه فى الاحترام والتقدير؟

وقبل ذلك: نشير إلى ما لقيه الإنسان على يد الظالمين من ظلم حمل فيه الخلاف العقدى فريقاً من المتصارعين على أن يحرث الأرض بأجساد الخصوم لتسميد الأرض . . كى تخصبها دماء الإنسان!!

---

(١) مسلم والنسائى. عن الترغيب والترهيب ج٣/١٦٧.

(٢) مسلم نقلاً عن الترغيب والترهيب.

وقد سمعنا ما قاله أتباع "لينين" له:

إن ثلاثة أرباع الشعب قد مات . . فكف عن التدمير فكان جوابه:

ليس للأمر أهمية أبداً . . إن مات ثلاثة أرباع الشعب . .

إن ما يهمنا هو:

أن يصبح الربع الباقى شيوعياً!!

أما فى الإسلام فإن الفرق واسع جداً . . بل ليس هناك مقارنة على الإطلاق:

فقد كان المخالفون فىالدين ينالون حظهم من الاحترام . .فضلاً عن احترام حياتهم ذاتها . .

ونقرأ فى ذلك ما ذكره القاضى "عياض" فى كتابه "ترتيب المدارك" قال:

حدثنى الدارقطنى:

إن القاضى اسماعيل بن إسحاق دخل عليه الوزير "عبدون بن صاعد النصرانى" وزير الخليفة المعتصم بالله العباسى.

فقام له القاضى ورحب به . .

فرأى إنكار الشهود لذلك.

فلما خرج الوزير. قال القاضى اسماعيل:

قد علمت إنكاركم. وقد قال الله تعالى:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾[١]

وهذا الرجل يقضى حوائج المسلمين . . وهو سفير بيننا وبين المعتصم. وهذا من البر)

فالقاضى إسماعيل شخصية مرموقة فى المجتمع . .وينبغى أن يحتفظ للمنصب بجلاله وهيبته . .

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨.

وحتى تظل هذه الهيبة موفورة . . فكان يجب عليه ألا يرحب بالوزير..
لأنه نصرانى . .

وهكذا فهم المتحمسون.

ولكن القاضى إسماعيل لم يفرط فى حقه . . ولا حق المنصب . . غاية ما هناك أنه كان أوسع من المنكرين أفقاً . . وأكثر فهماً لمرامى القرآن الكريم.. الذى عامل النصرانى على أساس من منهج الإسلام الراشد:

فالرجل نصرانى وهذا صحيح . .

ولكنه نصرانى . . ليست بيننا وبينه تجارب مرة . .

فلم يعتد علينا . . ولم يظلمنا . .

بل بالعكس . . هو يقضى حوائجنا . . وهو دائماً واسطتنا الذى يبلغ للخليفة حاجاتنا .

وإذن . . فاحترامه . . والاحتفاء به نوع من الوفاء . . والبر الذى لم تمانع الآية الكريمة فى حصوله من المسالمين مع أهل الكتاب.

على أن للقضية جانباً آخر:

فربما كان فى حسن المعاملة ما يجذب الكتابى إلى مودة من يحسن إليه وقد يحمله ذلك طوعاً إلى الإسلام . .

فى الوقت الذى تصبح المعاملة الفجة سداً يحول بين الرجل وبين الإسلام. .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوزير النصرانى يشغل منصباً مهماً . . أدركنا قيمة إسلامه الذى لو تم . . تشجع الآلاف على اعتناق الإسلام.

وبعد:

فهذا هو العدل كما يجب أن يكون يطبقه الرسول -ﷺ- عملياً وعلى سمع من الدنيا كلها . .

(يا أيها الناس:

من كنت جلدت لـه ظهراً. فهذا ظهرى. فليستقد منه "فليقتـص".

ومن كنت شتمت لـه عرضـاً. فهذا عرضـى. فليستقد منــه.

ومن كنـت أخذت لـه مـالاً. فهذا مـالى فليستقد منـه.

ولا يخشـى الشـحناء. فإنهـا ليسـت مـن شـأنى. ولا مـن طبعـى (أى: لا يخشى أن يـترك ذلك أثـر فـى نفس تخشـى عواقبـه)

ألا وإن أحبكم إلـىّ: من كـان لـه حـق فـأخذه منـى.

فلقيت اللـه عز وجل وأنـا طيب النفـس:

إن فضيحـة الدنيـا أهـون علـىّ من فضيحـة الآخـرة).

سنة الاختـلاف

وموقـف المسـلمين

يقول الحـق سبحانه وتعـالى :

﴿ألـم أحسـب النـاس أن يـتركوا أن يقولـوا آمنـا وهـم لا يفتنـون. ولقـد فتنـا الذين مـن قبلهم فليعلمـن اللـه الذيـن صدقـوا وليعلمـن الكـاذبين﴾[1].

تبين الآيـة الكريمـة سنة مـن سنن اللـه تعـالى فـى الاجتمـاع البشـرى . .

وهـى أن طريـق الإيمـان ليـس مفروشـاً بالريـاحين . . ولكنـه محفـوف بالمخـاطر . . وعلـى كل مسـلم أن يعلـم جيـداً بأنـه سـيواجه صعابـاً. وسـيعانى مـن فتن يرميه بهـا أعداء يقعدون لـه بكل سبيل . .

ليكـون ذلك امتحانـاً يظهر فيـه من هـو المؤمـن الحقيقـى . .

ومن هـو الكـاذب الـذى يسقط فـى هذا الامتحـان حتـى لا يغتر بـه أحـد.

وقـد نبهت السـنة النبويـة إلـى حتميـة هـذه الفتـن حتـى يستعد لهـا المسـلمون .

قـال -ﷺ-:

---

(١) العنكبوت ١-٣.

(ستكون فتن: القاعد فيها خير من القائم. والقائم فيها خير من الماشى. والماشى فيها خير من الساعى. من تشرف لها تستشرفه. ومن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به)[1]

سنة الاختلاف

واختلاف وجهات النظر أمر وارد . .

وهناك أقوام لم يستوعبوا حقائق الإسلام . تسيطر عليهم عادات وتقاليد متمكنة منهم .. وتحولت إلى جزء من كيانهم. فهى تدافع عنها كما تدافع عن حياتها ذاتها.

وقد دخلت فى الإسلام أمم لها حضارات قديمة . . ولها جاه وسلطان . . وفيها كهان يحقدون على الإسلام من وراء ستار. فكيف لا نتوقع من مثل هؤلاء قلاقل وفتن كلما سكنت فتنة ظهرت أختها؟!

وهناك أيضاً أعداء متربصون؟

لقد رأوا شمس الإسلام تشرق على العالم . . ورأوا تلك الوحدة الجامعة التى بدت فى مواسم الحج. وكيف صار المسلمون كياناً واحداً قادراً على أن يكون قوة عالمية . . فلم يهدأ لها بال حتى صدرت إلى بلاد المسلمين جراثيم التفرق فعملت عملها فى إفساد القلوب . . وتوسيع شقة الخلاف بين أبناء الدين الواحد . .ونقلوا إلينا أدواءهم وعللهم فسرت فى أجسادنا . .ولن نبرأ منها إلا بالإسلام . .

الخلافات . . والفتن . . قدر الأمة الإسلامية . . ما فى ذلك من شك . .

لكن المهم ما هو موقفنا إذا ما حدث ذلك؟

تلك هى القضية . .

---

(١) رواه البخارى.

موقفنا . . أن نعود بكتاب الله تعالى . . وسنة رسوله -ﷺ- . . فهما صخرة النجاة . . فإذا لم نسرع بالعودة إلى نقطة الاتفاق كنا قد أدينا لأعدائنا أكبر الخدمات . . حين يجلسون مسترحين بينما ننوب نحن عنهم فى تفتيت وحدتنا . . وتمزيق شملنا . . وتخريب بيوتنا بأيدينا . .

إن قيم العفو والتسامح لهى الدواء الشافى . . وهى الرد المسكت على أعداء يسعدهم أن نظل مختلفين . .

العقيدة وعزة الأمة

يعلمنا القرآن الكريم أن العقيدة أساس السعادة . . ومنشأ العزة.

فإذا لم تكن أساس العمل . . فلا قيمة للعمل . .

وإذا لم يعمر بها قلب الإنسان . . فلا إنسان. .

أما فى العمل فتقرأ قوله تعالى:

﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾(١)

وقوله سبحانه:

﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾(٢)

فقد يكون العمل كبيراً يستلفت الأنظار . .لكن غياب العقيدة الصحيحة يجعله هباءاً منثوراً . .

وكذلك شخصية الإنسان . .

فقد يكون الإنسان قوى الجسم . . جميل الملامح . .

وهو مع ذلك حلو اللسان . . لكنه بمقياس العقيدة: لا شئ

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٥.

(٢) سورة المائدة الآية ٥.

ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

ونتأمل فى ذلك قوله تعالى:

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم﴾(١)

فإذا أنت خبرت هذه الأجسام . . فبحثت عما وراءها لم تجد شيئاً . . وإنما أنت أمام ألواح من الخشب . . أو الحطب . . لا تصلح إلا أن تكون وقوداً للنار: لا تجد قلوباً ربانية بالفضيلة. . حية شاعرة . .

ولا تجد آذاناً واعية . . ولا عقولاً مدركة ..

ولا ضمائر مرتبطة بمجتمعها تؤرقها همومه ومشكلاته . .

لقد خلت القلوب من العقيدة الصحيحة . .فخلت فى نفس الوقت من ثمرات هذه العقيدة وفى مقدمتها الشجاعة . .

ومن ثم فيهم جبناء . . يفزعون كلما سمعوا صياحاً . .

فليس فى باطنهم ما يشد من عودهم . . ويثبت قلوبهم . .

﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾(٢) . . مجرد الحياة . .

لأنهم لما لم يؤمنوا بالآخرة عقيدة تؤكد لهم أن هناك يوماً يرجعون فيه إلى الله . . لما لم يؤمنوا بهذه العقيدة وظنوا أن الحياة . . ليل . . وخمر . . ونساء . . وأشواق تغنى حولهم . حرصوا عليها . . بل ازدادوا حرصاً . .

ومعنى تفاقم الحرص على الدنيا هو شدة الخوف من ضياعها . . فصاروا أشباحاً لا أرواحاً . .

ولم يبق الفزع على فوات الدنيا لهم أمناً . ولم يحسوا بطعم النعمة بعد أن نسوا المنعم سبحانه وتعالى . . فوكلهم إلى أنفسهم التى تتخبط بهم فى ظلمات لن يخرجوا منها . . إلا بالعودة إلى صخرة النجاة وهى:

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤.

(٢) سورة البقرة الآية ٩٦.

العقيدة الصحيحة التى تؤكد أن الإيمان بالغيب شرط ضرورى للسعادة فى الدنيا والآخرة.

بينما الإيمان بالعقل وحده . . والمادة وحدها . . مهلكة لا نجاه منها . .

فليحذر المتكالبون على الدنيا . . وليبدأوا رحلة الحياة من جديد على تقوى من الله ورضوان . . وعندئذ فقط . . تكون للحياة قيمة . . وللعمل وزن عند الله . . وعند الناس

سلمان الفارسى

الباحث عن الحق

قبل الهجرة . . وصل سلمان الفارسى رضى الله عنه إلى المدينة.

ولما هاجر -ﷺ-. جاءه سلمان بطبق من رطب وقال له:

هذه صدقة عليك. وعلى أصحابك.

فقال له الرسول: إنا لا نأكل الصدقة.

فقال سلمان: هذه واحدة (أى من علامات النبوة)

وفى اليوم التالى: جاء بطبق وقال: خذه هدية . . فقبله.

فقال سلمان: وهذه الثانية.

ولما انصرف ناداه -ﷺ- وقال: وإليك الثالثة:

وكشف عن خاتم النبوة . . فقبله سلمان . . وأسلم.[1]

وقد سعد المسلمون بإسلامه. . وتنافس المسلمون فى التودد إليه:

قال المهاجرون: هو منا . .لأنه مهاجر.

وقال الأنصار: هو منا لأنه هنا قبل الهجرة . .

وحسم -ﷺ-الموقف بقوله:

سلمان منا آل البيت!

---

(١) راجع: أسد الغابة- الاستيعاب

والســـؤال الآن:

بمــاذا اســتحق سلمان هـذا الشـرف العظيـم؟

لقـد اسـتحق ذلـك الشـرف بأخلاقـه الكريمــة. وحســن معايشــته للآخر ... الذيــن عاشـروه فــأحبوه . .

إنــه رجـل يبحـث عـن الحقيقــة . .

ولكنــه لا يبحـث عنهـا فـى بطـون الكتــب . .

ولا يتلقاهـا من غــيره بالمراســلة . .

ولا يتحمــل مســئوليتها بــالظن أو التخميــن . .

ولا يلغـى عقلـه وقلبـه ليتبـع آخـر ليفكـر لـه . . ويخطـط لــه . .

وإنمـا هـو البحـث الحـر النزيــه . . والتجربــة العمليــة الميدانيــة التــى اكتشــف بها الحق المبين . . فلمـا تبين لـه أعلـن إسـلامه الـذى شـرفه اللـه تعـالى بـه.

وكـانت لـه مواقفـه المرموقـة . . علـى جبهـة القتـال . . فـــى الحــرب. .

وكـانت لـه شـجاعته الأدبيـة فـى الســلم . .

فــى غــزوة الخنــدق أشــار علــى الرسـول -ﷺ- بحفـر الخنـدق.. ولـم يكــن معروفاً فى بلاد العرب . .

وأحـدث هـذا الاقــتراح خلخلــة فــى صــف المشــركين الذيــن فوجئــوا بــالخندق يعرقـل مســعاهم

أما فى السلم:

فقـد كـان لـه رأيـه الشـجاع فـى مواجهـة مـا لا يـراه حقـاً . .

وقـف الخليفـة عمــر ليخطــب . .

ولمــا اســتأذن المســلمين فـــى الكــلام . . وقــف لــه ســلمان الفارســـى . . ثــم وضعــه موضــع المســاءلة لأنــه يلبـس ثوبيــن . . بينمــا وزع علــى كـل مسـلم ثوبــاً واحـداً . .

وتوقف الخليفة فعلاً عن الكلام . . حتى أثبت أن الثوب الزائد لولده . . وليس له . .

وعندئذ أذن له سلمان بالكلام . . لقد جعل منه الإسلام لسان صدق . . يقول الحق دون خوف . . بعد أن فاز بالجنسية الإسلامية التى جعلت منه مواطناً عالمياً.

ولم ينل سلمان تلك المنزلة . . بالادعاء . . وإنما بالعقل المتفتح . . والقلب المخلص . . والتحرر من التبعية لأحد إلا للحق . .

وصدق رسول الله -ﷺ- حين قال:

(لو كان الدين عند الثريا . . لناله سلمان)

عندما يكون الولاء للإسلام وحده

عن ربيع بن نضلة أنه خرج فى اثنى عشر راكباً كلهم قد صحب محمداً -ﷺ- من الصحابة- وفيهم سلمان الفارسى . .وهم فى سفر.

فحضرت الصلاة. فتدافع القوم . .أيهم يصلى بهم؟

فصلى بهم رجل منهم أربعاً.

فلما انصرف قال سلمان:

ما هذا؟ قالها مراراً. نصف المربوعة؟

يعنى نصف الأربع – نحن إلى التخفيف أفقر.

فقال له القوم: صل بنا يا أبا عبد الله . . أنت أحقنا بذلك . .

فقال سلمان: لا . . أنتم بنو اسماعيل الأئمة. ونحن الوزراء.

هؤلاء أصحاب كرام . . يضربون فى الأرض طلباً للرزق . .أو جهاداً فى سبيل الله

فلما جاء وقت الصلاة . . بحثوا عن أيهم أحق بالإمامة . .

ولم يقع بينهم خلاف فى أمر من يقف بهم بين يدى الله تعالى . .

فلما صلى بهم أحدهم أتم الفريضة أربعاً - ولم يصلها اثنين كما هى فى السفر - كانت لهم جميعاً وقفة تصحيح:

وكان فى طليعة المتكلمين سلمان الفارسى:

لقد استنكر ما فعله الإمام . . محتجاً بأن المسافرين أحوج إلى التخفيف.

إن قصر الصلاة فى السفر هدية من الله تعالى إلى عباده . .

فلماذا لا يقبلون هديته سبحانه . . هكذا رأى سلمان الفارسى رضى الله عنه.

وكان أن أجمع القوم على أن يكون إمامهم سلمان . .

وقد طلبوا منه ذلك متلطفين فى الطلب . . بقولهم "يا أبا عبد الله" تودداً ورجاءً . .

ولقد كان الصحاب منصفين عندما اختاروا أفقههم ليكون لهم إماماً . .

وما كان اختيارهم له إلا تقديراً لمكانته وعلمه وشجاعته الادبية التى اتسم بها طول حياته . .

ولقد وقف الصحابة موقفاً يليق بهم حيث عرفوا للرجال منزلتهم "وخيركم من ينزل الناس منازلهم"

فماذا فعل سلمان؟

لقد شكر بطبيعة الحال حسن ظنهم به . .

لكنه فى نفس الوقت . . وقف الموقف اللائق به حين اعترف بفضلهم.. حقهم فى أن يكون منهم الإمام . . مشيراً إلى موقعه فى الدعوة وهو أنه فقط "وزير" يحمل مع الملك تبعاته عوناً له ونصيراً.

فانظر إلى الأصول العرقية وكيف اختفت . . ليبرز الولاء للإسلام وحده..

إن التقوى هى الفيصل فى القضية . .

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]

وبها كان سلمان فى طليعة المؤمنين . .وقد سبق غيره إلى الفضل بما حصله من فضائلها . .

ولئن فرض عليه تواضعه أن يعترف لزملاء الكفاح بالسبق . . فلم ينقص ذلك من قدره . . وكانت له فى القلوب تلك المكانة العالية التى استحقها عن جدارة واستحقاق . . وكم يسعد الإسلام بمثل هذا الاحترام المتبادل . . والتقدير الذى لاح من خطاب الصحاب . .

وما يزال الباب مفتوحاً لاستقبال مثل هذه النماذج الطيبة . . التى جعل منها الإسلام جسداً واحداً . . يتجه إلى هدف واحد . . وعندئذ فلن يجد أعداء الإسلام فى هذا البنيان المرصوص ثغرة ينفذون منها إلى قلب أمتنا.

أهمية اتباع السلف

لم تستطع المسيحية ترويض غرائز الانتقام الكامنة فى كيان الإنسان . .

كما لم تستطع تقييد الدوافع العدوانية . . ولا التصدى لبركان الغرائز الجامحة . . والأنانية البغضية . .

والإسلام وحده هو الذى استطاع أن يطهر النفوس من هذه النزوات الطائشة . . حين جمع القلوب على كلمة التوحيد . .

ورأينا جماعة الصحابة يتصرفون بوحى من هذا الدين الذى أكرمهم الله تعالى به . . كما شاهدنا فى قصة الركب من الصحابة -وكان منهم سلمان رضى الله عنه- وتبين لنا كيف كانوا جسداً واحداً . .

ونتساءل عن سر هذا التفوق العجيب . . لنلتقى بالجواب:

إن الله تعالى خلق الخلق ومن قوانينه: التفاعل بين المتشابهين . .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

وكلما كانت المشابهة أكثر . . كان التفاعل أتم . . حتى يئول الأمر فى النهاية إلى ألا يتميز أحد عن أحد . .

ولقد جمعت شريعة الإسلام بين السلف الصالح فعاشوا على قلب رجل واحد حتى رأينا من يعرض على أخيه أن يقبل منه نصف ماله . .

بل وجدنا من يعرض عليه أن ينظر أى زوجتيه يختار ليطلقها له . . فيتزوجها.

وهكذا وقع التأثير والتأثر بين المسلمين . . واكتسب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة . .

ونحن المسلمين مدعوون إلى الاجتماع على كلمة الدين ليحدث بهذا الاجتماع تأثير وتأثر . .

وإذا فاتنا أن نرى أباءنا الصالحين بأعيننا . . فلم يفتنا أن نعايشهم فيما أثر عنهم من كريم الخصال . . وحكيم الأقوال . . لنحقق بهذا التأسى بعض ما حققوه.

ولهذا أوجب الشرع الشريف علينا اتباع سنن من كان قبلنا من السلف الصالح . .

لأن التشبه بهم إحياء لهذه النماذج الطيبة لترشد خطانا على الطريق . . بقدر ما يبعدنا عن النماذج الرديئة التى يريد أعداء الإسلام فرضها علينا حتى لا تقوم لنا قائمة . . ونصبح أمة بلا رجال . .

وصدق الشاعر القائل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبه بالكرام فلاح.

لقد رمانا أعداء الإسلام بصور مختلفة كأنما كانت غيوماً قاتمة حجبت عظمة سلفنا الصالح -يريدون بذلك التعتيم الإعلامى على بطولاتهم ومآثرهم . . ثم ركزوا على رجالهم هم ليفرضوا علينا قيمهم الزائفة . .

ونحن مطالبون بإحياء هذا الماضى العظيم . . بإحياء سيرة رجالنا العظام بالإسلام . .

فلنعش هذا الماضى المجيد . . ولنجتمع ونفترق عليه لتكون لنا شخصيتنا المستقبلة.

لنجتمع على مثل هذه الروائع من تاريخينا:

١- روى أن علياً كرم الله وجهه أعطى غلامه دراهما ليشترى له ثوبين متفاوتى القيمة. فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجاً وأعلاهما ثمناً وحفظ لنفسه الآخر وقال له:

أنت أحق منى بأجودهما. لأنك شاب تميل نفسك للتجمل أما أنا فيكفينى هذا.

٢- وكان لزين العابدين خادم. ورفع هذا الخادم شاة فكسر رجلها . . فسأله لم فعلت هذا فقال: لأثير غضبك. فرد عليه: وأنا سأغضب من علمك - يعنى إبليس- ثم قال له: اذهب فأنت حر لوجه الله.

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . . ولمثل هذا فليعمل العاملون . .

سلمان الفارسى

والأخوة الجامعة

آخى رسول الله -ﷺ- بين سلمان الفارسى وأبى الدرداء العربى . .

وكأنما جمع الرسول الكريم بين قلبيهما فى إناء واحد . . ثم صب عليهما من عصارة الإسلام المباركة فعاشا بقلب واحد . . وذابت القومية . . ليكون الإسلام شعارهما والراية الجامعة لهما . .

وبدأ سلمان الفارسى يمارس الأخوة عملياً:

ذهب يوماً لزيارة أخيه أبى الدرداء فى بيته . . فلاحظ أن أم الدرداء تلبس ثياباً مبتذلة . . ولا أثر للزينة عليها.

فسألها عن شأنها قالت:

إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة فى شئ من الدنيا (تريد إنه زاهد فيها)

فلما جاء أبو الدرداء رحب بأخيه سلمان . . ثم قرب له طعاماً . . واعتذر عن الاكل لأنه صائم . .

فأقسم عليه سلمان أن يأكل . . وإلا . . فلن يأكل . .

وبات سلمان عند أخيه فلاحظ أنه يقوم الليل . . فمنعه سلمان . .

فلما قرب الفجر أذن له فى القيام. ثم خرجا إلى المسجد لصلاة الفجر . .

وكانت هذه النصيحة الغالية حين قال له:

يا أبا الدرداء:

إن لربك عليك حقاً.

وإن لأهلك عليك حقاً.

وإن لجسدك عليك حقاً.

فأعط كل ذى حق حقه . .

فلما أخبر أبو الدرداء رسول الله -ﷺ- بما حدث.

سعد بما سمع معلناً أن سلمان أصاب الحق فيما صنع . .

وهكذا عاش سلمان الفارسى . . فى مجتمع صار بالإسلام خيطاً فى نسيجه . .

يزينه الحلم . . وتظلله الحكمة . . وتسعد به مجالس العلم . . وكيف لا وهو الذى ينهل من علم رسول الله . . بل لقد كان له مجلس خاص مع رسول الله -ﷺ-.

قالت عائشة:

كان سلمان يغلبنا على رسول الله . . أى يفوز بوقت أطول معه . . فتمت له الحكمة . . وجمع المعرفة من أطرافها . .

ولقد استأثر لهذا بحب رسول الله -ﷺ-:

فقد أخبر أن سلمان ممن يحبهم الله . . وممن أمره بحبهم وهم:
على . وأبوذر . والمقداد . وسلمان . رضى الله عنهم.

وهكذا وحد الإسلام بين المسلمين علىاختلاف مشاربهم وتعدد جنسياتهم . .

وعاش فى رحاب الأمة الإسلامية:

صهيب الرومى . .

وسلمان الفارسى . .

وبلال الحبشى . .

وكان من تدبير الله تعالى أن تكون هذه الأخوة الإسلامية الجامعة . .
لتكون دليلاً واقعياً على قدرة الإسلام على صياغة النفوس صياغة جديدة..

وما زال الإسلام قادراً على هذه الوحدة متى وجد الرجال الراغبين فيها.. العاملين لها . .

وما زال الأمل قوياً فى عودة مباركة إلى صخرة النجاة:
إلى الإسلام من جديد . . ليكون الأمر على ما قال الشاعر:
أبى الإسلام لا أب لى سواه
إذا افتخروا بزيد أو تميم.

من جذور العفو

إذا عشش الكبر فى صدر إنسان . . فلا عفو يرجى منه.

لكن سليقة التواضع. والإحساس بالأخوة المشترك داع إلى العفو . .
تقديراً لهذه الأخوة. .

وعندما جاء محمد -ﷺ- بالهدى ودين الحق . . أسرع الموفقون من الناس فدخلوا فى دين الله أفواجاً . . طواعية واختياراً . .

وكانت حقائق الدين ومبادئه معروضة واضحة لمن أراد أن يتخذ إليها سبيلاً . . لا فرق بين عربى وعجمى . .

لقد اختفت الجنسيات والنعرات القومية فلم يكن لها دخل فى مركز الإنسان الذى تبوأ مكانه العلى بقدر ما حصل من ملكة التقوى ولقد نجح فى الامتحان من نجح . . وسقط من سقط . . ولم يسرع بالإنسان نسبه لما تخلف به عمله . .

ونحن اليوم أمام موقفين . . فيهما من العظات ما فيهما . . مما يؤكد حقيقة الإسلام الكبرى وهى :

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

كان "جبلة بن الأيهم" زعيم قومه . . فلما أسلم . . أسلموا معه . . ثم جاءوا للحج . .

وأثناء الطواف داس واحد من المسلمين على طرف عباءة "جبلة" فاستاء استياءً شديداً. وعد ذلك شرخاً فى كرامته . .

وما كان منه إلا ضرب الرجل فهشم أنفه!!

ولما علم أنه لابد من القصاص . . أسرع راجعاً إلى دياره هارباً . . وأخذته العزة بالإثم . .

وهكذا يفعل الكبر بأهله حين يورطهم فى شر أعمالهم فيرفضون العدل. بدافع من الكبر الذى يخسرون به كل شئ.

فإذا تذكرنا "سلمان" وموقفه المتواضع رأيناه كيف تبوأ القمة العالمية . . فاستحق أن يكون فى الخالدين:

أخرج بن سعد عن ثابت قال:

كان سلمان الفارسى أميراً على المدائن:

فجاء رجل من أهل الشام معه حمل وعلى سلمان سروال أعجمى وعباءة.

فقال الرجل لسلمان وهو لا يعرفه:

تعال. . إحمل -يظنه حمالاً-.

فحمل سلمان. فرآه الناس فعرفوه فقالوا:

هذا الأمير. فقال الرجل:

لم أعرفك.

فقال له سلمان:

لا. حتى أبلغ منزلك. قد نويت فيه نية. فلا أضعه حتى أبلغ بيتك.

فهذا هو سلمان الفارسى رضى الله عنه يمشى فى الطريق بلا حراس .

وبلا تأنق فى اللباس . .

فلما طلب منه الرجل أن يحمل له حمله . . والناس من حوله ينظرون ويتعجبون.

ولو أن مسئولاً اليوم تعرض لمثل هذا الموقف . . لقامت الدنيا ولم تقعد!!

لماذا؟؟

لأن بعض الشخصيات اليوم شخصية زجاجية تكسرها هبة النسيم . .

أما سلمان ومن على دربه فإن قلوبهم ممتلئة إيماناً . . فلا يضرها ما عملت مهما كان فى نظر الناس غريباً . . فالمسلم الغنى بمبادئه قوى بهذه المبادئ . .

ويبقى الموقف بعد ذلك درساً فى التواضع . .

وهو درس عملى لا يقرأ فى كتاب ولكنه يمشى على الأرض جيئة وذهاباً . .

لقد كان السلف الصالح يصنعون الحقائق عملياً . . ولم يكونوا فقط يلقنونها للناس فى حلقات الدروس . .

من أجل ذلك بقيت ذكراهم خالدة . .ومهما تطاول الزمان . . فهم فى القلب . . وعلى اللسان . . وسلام عليهم فى الخالدين .

يقول ابن قيم الجوزية:

(والمنصف:

يهب خطأ المخطئ . . لإصابته.

وسيئاته . . لحسناته . .

فهذه سنة الله تعالى فى عباده: جزاء . . وثوابا.

ومن ذا الذى يكون قوله كله سديداً.

وعمله كله صوابا؟

وهل ذلك إلا للمعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . . ونطقه وحى يوحى)[1]

فاللهم هب المسيئين للمحسنين.

فلن يسع الخطائين إلا أصحاب الصدور الوسيعة والقلوب الكبيرة من المحسنين . .

محققين بذلك قاعدة الإسلام القائلة:

(الراحمون يرحمهم الرحمن)[2]

(من لا يَرحم لا يُرحم)[3]

فطريقك إلى رحمة الرحمن . . هو الرحمة بالإنسان.

دور المجتمع

فى تقويم العصاة

لا مكان للشماتة فى قلوب المؤمنين . .فى تعاملهم مع المخطئين . .

وإنما هو الإشفاق . . والوقوف إلى جانبه . .حتى نقيله من عثرته . .

ثم . . البحث عن جذور الخطأ . .ليكون العلاج ناجحاً:

---

(١) روضة المحبين ٢٢.

(٢) الحديث رواه الإمام الترمذى فى البر والصلة (١٩٢٤) وأبو داود فى الأدب (٤٩٤١)

(٣) الحديث رواه الإمام البخارى فى الأدب (٥٩٩٧) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٨).

ونقرأ في المعنى الأول ما روى أن "معروف الكرخي" كان يوماً على شاطئ دجلة ببغداد. إذا مر بعض الشباب في زورق يضربون الدفوف . . ويشربون . . فقيل له:

ادع عليهم!!

فرفع يده وقال:

إلهي. وسيدي: أسألك أن تفرحهم في الجنة . . كما فرحتهم في الدنيا!

فقيل له:

إنما قلنا: ادع عليهم . .ولم نقل: ادع لهم!!

فقال:

إذا فرحهم الله في الآخرة . .تاب عليهم فيالدنيا . .ولم يضركم شيئ!!

وكأنما كان التلاميذ هنا يتهمون أستاذهم بأنه لم يفهم السؤال . .

فاتهممهم هو بالغباء . . والجفاء . . لكنه يواجههم بذلك . .

مبيناً لهم:

أن المؤمن . . يطلب المعاذير . .

والمنافق . . يطلب العثرات . .

فلم نقطع خط الرجعة على شباب يمكن أن يعودوا إلى الحق يوماً . . بين مشاعر الإشفاق . . بدل مشاعر الشقاق . . لنعيين العصاة على عود حميد إلى الحق من جديد؟

لقد ظل المغني في دولة أجنبية سادراً في غيه . . وفجأة . .

شوهد في شوارع العاصمة بالزى العربي الإسلامي . .

وصار "يوسف اسلام" خير داع إلى الإسلام بزيه . . وسمته الوقور!

ويفرض ذلك علينا أن نكون في دعوتنا كهذا العالم "معروف" والذى دعا إلى الحق بالمعروف . . فنغير النظرة إلى السادرين في هواهم: فنقف موقف المترقب لحظة الهداية . . لا موقف المتربص لحظة الهلاك.

ويـأتى العـامل الاهـم فـى القضـاء علـى المشـكلة وهــو:

البحـث عـن أسبابها: تشـخيصاً للعلـة . . ليكـون العـلاج مـن بعـد ناجحــاً.

تعرضـت امـرأة لشـخصين فـى الطريـق . . تغريهمـا . . فبكـى أحدهمـــا ..

فقال له صاحبـه: لـم تبكـى؟ قـال:

لأنهـا لـم تفعـل ذلـك إلا لأن شـيخين قبلنـا . . قبـلا ذلـك منهـــا؟!!

وتـأمل فـى موقـف هـذا الشـيخ . . رقـة قلبـه:

وإذا رق القلــب . . تنديـت العيـن بـالدموع . .

ثـم تــأمل ذكــاء عقلــه الــذى نظـر إلــى المشـكلة لا بـروح التشـفى . . وإنمــا بمحاولـة دراستها . . ورجعهـا إلـى أسبابها . . رغبـة فـى وضـع حـد لهـــا . .

ومـا أكـثر البكـائين علـى خطايـا البشـر . . لكنهـم لا يملكـون إلا الدمــوع . .

ومـاذا يفعـل الدمـع المسفوح إزاء شـر يتسـع مـداه . .

إنـك لـن تسـتطيع الصعـود إلـى القمـة . . ويـداك فـى جيبــك!

والكيـس الفـارغ لا ينتصـب أبـداً . .

لابـد إذن لمواجهـة المنكـر مـن موقـف عملـى يسـتهدف اسـتئصال شـأفته . .

لابـد مـن دراسـة ظـاهرة الانحـراف. حتـى إذا وقعنـا علـى أسـبابها هنـاك فـى الأعمـاق . . بـدأ العـلاج أيضـاً مـن هنـاك . . مـن الأعمـاق!!

إنهـا الموضوعيــة . . وليسـت الموضعيــة!

إنــه النقـد . . وليس هــو النقــص!!

وآخـر دعوانـــا . . أن الحمـد للــه رب العــالمين.

الفهرس